القسم الأول

حياة ابن حزم

أ — عصره

ب — أصله ونشأته وشبابه

ج — طلبه وعلمه ومصنفاته

د — مذهبه

هـ — أدبه

و — هبه

ز — أخلاقه

ح — مزاجه

ط — هو والناس

ي — وفاته

حياة ابن حزم

آخر رمضان سنة ٣٨٤ — ٢٨ شعبان سنة ٤٥٦ هـ
٧ تشرين الاول سنة ٩٩٤ — ١٥ آب سنة ١٠٦٤ م

أ — عصره (٣٥٠ — ٤٧٠ هـ)

ابن حزم من أينع الثمرات التي انشق عنها فردوسنا المفقود (الأندلس) فهو من أعلام الدين ، والشعر والأدب ، والسياسة والتاريخ والفلسفة ، وممن ولي الوزارة هو وأبوه ، وممن تعرض للنكبات والإبعاد ... وذلك كله يحتم علينا قبل البدء بالترجمة له ، أن نلم — في إيجاز — بمجمل الحالة السياسية والفكرية في القرن الذي شهد آثار عبقريته المعجزة ، ونعني بذلك الفترة بين سنتي (٣٥٠ — ٤٧٠ هـ):

* * *

توفي الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر سنة (٣٥٠ هـ) بعد أن تمتع العرب بالأندلس في حكمه ، بأيام تزري بأيام الرشيد في بغداد : فقد قضى على الاضطرابات السائدة لأول حكمه ، وأدّب الخارجين عليه ، وقهر أعداءه الطامعين ، به وأرهب الإسبان ، وضمن للناس رخاءً وأمناً ما سمح الزمان بمثلهما ، ووطد ملكاً على أساس متينة . ساعده على هذا عقل راجح ، ودهاء واسع ، ووطنية مخلصة

ورجولة كاملة ، مع بأس شديد وصفح جميل وهمة بعيدة ، فاجتمعت الأندلس عليه ونعمت في عهده وازدهرت . ورفع للعلم صرحاً باذخاً فأغدق العطايا على العلماء وأوسع لهم مجالسه وفتح خزائنه . وكان من حظ الأندلس أن دامت ولايته خمسين سنة نسيت فيها ما أصابها من شدائد . ولم يؤخذ عليه طول أيامه إلا تقريبه الموالي تقريباً أضعف العصبية العربية فيما بعد . ولا يبعد عن ذهنك أن الذي عجل خراب الأندلس فريقان : (الإسبان) العدو الخارجي ثم البرابرة والصقالبة وهم الجراثيم الداخلية التي فعلت في الجزيرة ما فعل الموالي من الفرس والأتراك في خلافة العباسيين ببغداد .

تربع على عرش الخلافة بعد الناصر ابنه الحكم وهو أعلم الأمويين وأحكمهم على الإطلاق ، فسار بسيرة أبيه فغزا الجلالقة الذين طمعوا في الثغور ، وانتقض عليه بعض الحكام الإسبان فحاربهم وعقدوا معه المعاهدات ثم تفرغ لتنشيط الحركة العلمية وكان قد بدأ ازدهارها في عهد أبيه الناصر ، فاجتمع له من العلماء وكتب العلم ما لم يجتمع لغيره قط . وجميل بنا أن نروي لك مبلغ عنايته بالعلم عن ابن حزم نفسه قال :

« إن عدة الفهارس في خزانة الحكم العلمية ، التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، في كل فهرسة عشرون

ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط[1] » وقال المقري :

« جمع من الكتب مالا يوصف كثرةً ونفاسة حتى قيل إنها أربعمائة ألف مجلد ، وإنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها . . . (وإنه) قلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر ، في أي فن كان ، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن[1] . »

ولم تطل مع الأسف مدة حكمه أكثر من ست عشرة سنة ، كان فيها بعد أبيه كالمأمون بعد الرشيد ، بل إن هذا الذي ذكره المقري من قراءته الآلاف المؤلفة من المجلدات وتعليقه عليها وخبرته بتواريخ أصحابها وفنونها شيء لم نسمع مثله لمخلوق آخر لا خليفة ولا عالم .

توفي الحكم سنة (٣٦٦ هـ) وبوفاته انقضى العهد الذهبي للأندلس وبدأ عصر الفوضى والاضطراب والتغلب وتمزيق الكلمة وطمع الأعداء . ولم تقم بعده للأمويين قائمة . ولئن ولي الأمر بعده خلفاء من أمية ، إن هذه الولاية لم تكن إلا اسماً لا رسم له .

---

(١) نفح الطيب ١ : ١٨٤ ، ١٨٥

وانفسح الأمر للوزراء والحجاب[1] المتغلبين فمثلوا في الجزيرة أدوار الأفشين وبغا وآل بويه مع الخلفاء ببغداد .

ولي الأمر بعد الحكم ابنه هشام المؤيد وكان عمره عشرة أعوام وأشهراً فأخذ شأن الخلافة بالضؤول ونسى لابن أبي عامر أن يقضي على حقيقتها ويبقي اسمها فنشأت بذلك دولة بني عامر وإليك البيان :

كان المنصور بن أبي عامر هـذا وكيلاً للسيدة صبح أم هشام على عهد الحكم ينظر في أموالهـا وضياعها فسعت لدى الحكم حتى ولاه القضاء وبدت له فيه كفاية واسعة . فلما ولي هشام على حداثته تسلم المنصور الحجابة ، وقبض على ناصية الأمور واستبد بها ، ورسم لنفسه خطة للقضاء على كل من يمكن أن ينازعه الأمر يوماً من الأيام . وأفضل أن أطلعك على شرح المقري لخطة المنصور فإنه خير من يعينك على فهم الحالة السياسية حينئذ ، وما يحف بها من مكائد وتقلبات ثم يوضح لك سبب النكبات التي حلت بابن حزم فجعلته يهيم بين السجون والمنافي ناجياً بنفسه من بلد إلى بلد كما سيمر بك . قـال المقري :

---

(١) وظيفة الحـاجب في الأندلس تشبه وظيفة رئيس الوزراء لعهدنا ، فهو الواسطة بين الوزراء والخليفة .

« . . . ثم سما لابن أبي عامر أمل في التغلب على هشام لمكانه في السن ، وثاب له رأي في الاستبداد ، فمكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضاً ببعض . . . ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه فمال عليهم وحطهم عن مراتبهم وقتل بعضاً ببعض ، كل ذلك عن هشام وخطه وتوقيعه ، حتى استأصلهم وفرق جموعهم . وأول مابدأ بالصقالبة الخصيان الخدام بالقصر فحمل الحاجب المصحفي على نكبتهم فنكبهم وأخرجهم من القصور وكانوا ثمانمائة أو يزيدون . ثم أصهر إلى غالب مولى الحكم وبالغ في خدمته والتنصيح له واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا أثره من الدولة ثم استعان على غالب بجعفر بن أحمد صاحب المسيلة ، وقائد الشيعة ممدوح بن هانئ . . . ثم قتل جعفراً بمالأة ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذي النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم . ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة رجع إلى الجند فاستدعى أهل العدوة من زناتة والبربر فرتب منهم جنداً واصطنع أولياء . . . فتغلب على هشام وحجره واستولى على الدولة . . . . وقدم رجال البرابرة وزناتة وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم . فتم له ماأراد من الاستقلال بالملك . . . . . وتسمى بالحاجب المنصور ، ونفذت

الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ، ومحا رسم الخلافة بالجملة ، ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر وكتب اسمه في السكة ... وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب فغزا ستاً وخمسين غزوة لم تنكس له فيها راية ولا فلّ له جيش .[1]»

بقي الأمر مستمسكاً على عهد الحاجب المنصور لأنه كان من أعظم السلاطين دهاء وحزماً وهيبة في القلوب . دامت أيامه سبعاً وعشرين سنة ثم خلفه ولده عبد الملك وتلقب بالمظفر فسار في الحجابة سيرة أبيه في الجملة سبعة أعوام ثم توفي سنة ٣٩٨ هـ فخلفه أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر وحاول أن يزيد من سلطانه فحمل الخليفة المستضعف هشاماً المؤيد على العهد له بالخلافة بعده ، فثارت لذلك ثائرة الأمويين وسائر المضريين لأن السلطة الفعلية التي مارسها الحاجب المنصور — وهو يمني — كانت قذى في عيون المضريين كافة وسكتوا على مضض حتى طفح الكيل . وكان عبد الرحمن دون أبيه وأخيه كفاية وأكثر أطماعاً ، وزاد الأمر تسلط البرابرة والصقالبة ، مما أغضب المضرية واليمنية جميعاً ، وكانت فتنة خلع فيها المؤيد وسجن ، ورجع عبد

(١) نفح الطيب ١ : ١٨٥

الرحمن الحاجب من غزوه ليتلافى الأمر فانفض عنه أنصاره وثار به جنده وقتل سنة ٣٩٩ هـ وانتهى بذلك أمر الدولة العامرية .

بايع الناس لمحمد بن هشام بن عبد الجبار وتلقب بالمهدي وبدأ يشدد الوطأة على البرابرة فثاروا به فأزعجهم عن قرطبة ثم هاجموا المدينة فخلعوه ففر وبايعوا بعده سليمان بن الحكم بن الناصر وتلقب بالمستعين سنة ٤٠٠ هـ فلم يفجأ الناس إلا المهدي مستجيشاً بملك قسطيلة الإسباني ، فاسترد ملكه وحارب البربر فانهزم فقتلوه وأعادوا هشاماً المؤيد ثانية سنة ٤٠٣ هـ وبدأت المهازل تترى بين المتقاتلين على الإمارة يستعين كل منهم بعدوه وعدو بلاده على أخيه وابن عمه ... ثم قتل هشام وأعيد المستعين ونهض خيران العامري يكاتب الأدارسة ويحرض الناس على خلع المستعين ، حتى جاء علي بن حمود العلوي من الأدارسة وملك قرطبة سنة ٤٠٧ هـ وقتل المستعين فانقرضت دولة الأمويين وبدأت دولة العلويين . أوجس خيران العامري خيفة من ابن حمود فسعى سراً ليعيد الأمر إلى الأمويين بعد أن كان سعى في خروجه منهم ، وشاء الله أن ينجح المسعى فبايع أكثر الأندلس عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ولقبوه بالمرتضى سنة ٤٠٨ هـ وتغير المرتضى على خيران وكانت بينهما أحداث انتهت

ببيعة عبد الرحمن بن هشام أخي المهدي ولقب بالمستظهر سنة ٤١٤ هـ. وتعاقب المستضعفون من أمية والأمر بينهم وبين العلويين دول، حتى بويع هشام بن محمد المعتدّ بالله سنة ٤١٨ هـ فاضطربت ولايات الأندلس وهب أمية بن عبد الرحمن بن هشام يطلب البيعة لنفسه في هذه الاضطرابات والفتن القائمة، حتى سئم الناس الأمويين ونادى أهل قرطبة بالأسواق والأرباض بالوقيعة في الأمويين حتى لايبقى منهم أحد فكان آخر خلفائهم هشام بن محمد وختم ملكهم سنة ٤٢٢ هـ.

انقرضت الخلافة الأموية، واستقل كل وال بولايته، وبدأ عهد ملوك الطوائف في الأندلس: فاستبد ابن جهور [1] في قرطبة

---

(١) كان أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور هذا رئيس الجماعة بقرطبة؛ فلما خلت من بني أمية نهض بمقاليد الأمور خير نهوض فاستتب الأمن وعمرت قرطبة وسار في الناس سيرة الصالحين: يعود المرضى ويشهد الجنائز وأشرك في أمره اثنين ليكون شورى واستشعر الناس في عهده شيئاً من الطمأنينة إلى أن مات سنة ٤٣٥ هـ فقام بالأمر بعده ولده محمد بن جهور وطالت مدته ثم ضاق به أهل قرطبة فخلعوه سنة ٤٦١ هـ ولم يكن ابنه عبد الملك الذي ولي الأمر بعده بأسعد حظاً، إذ أنه أساء السيرة فأخرج من قرطبة. ثم استولى عليها المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية سنة ٤٨٤ هـ.

وابن عباد في إشبيلية ، وبقي الأمر هكذا مشتتاً لانظام له والفتن بين الملوك الصغار لاتهدأ ثائرتها حتى ملك الأندلس رجل واحد هو يوسف بن تاشفين ملك الملثمين في بر العدوة .

هذا هو عهد احتضار الدولة الأموية وانقضاء أيامها ، العهد المضطرب المخيف الذي شهده عالمنا ابن حزم ، مررت بأهم أحداثه مراً سريعاً ، لتبقى في ذهن القارئ حين يمر بحياة ابن حزم المشردة . وليعظم هذه العبقرية التي نجمت في عهد الاضطراب الإعظام اللائق بها . ولا يحسبن أحد أن الناس في هذه القلاقل كابدوا شظفاً من العيش أو ضيقاً في أساليب الحياة ، بل إن الأمر على العكس ، لقد رتعوا في بحبوحة من عيش رغد ورخاء دائم ونعيم مقيم وعلوم زاخرة ، وحياة فكرية خصبة لولا ماشابها أحياناً من ممالأة المتسلطين للعوام في تتبع كتب الفلاسفة والمشتغلين بها ، وضمنت لهم حضارتهم الزاهرة ألواناً من الترف واللذائذ والبذخ [1] ماأظن أنا نتمتع بمثلها لهذا العهد . والمؤرخون مجمعون على أن الدول تنقرض وهي أكثر ماتكون تنعماً وخيراً وحضارة وسعة . ولعلك تذكر أن البربر محوا الدولة الرومانية و (رومة) ترفل بأسبغ حلل الحضارة والترف والنعيم ، وأن

(١) سيمر بك بعض ذلك بتصوير ابن حزم نفسه لمجتمعه .

الدولة البيزانطية انقرضت على أيدي العثمانيين الخشنين حين بلغت علومها وآدابها ونظمها وبذخها الغاية التي ما بعدها غاية ، وأن التتار قضوا على الدولة العباسية : وحضارة بغداد يومئذ في الذروة ، فما كان ضيق الفكر وقلة العلم وبساطة العيش نذير الانحلال في يوم من الأيام ، إنما نذير الانحلال هو الانحطاط الخلقي الناشئ عن بسطة العيش والانغماس في حظوظ النفس ثم التفكك الاجتماعي الملحوظ في تفرق الأمة وتمزق كلمتها وخروج بعضها على بعض واستعانة بعضها على بعض بالأعداء ... سنة الله في عباده ، ولن تجد لسنة الله تحويلا .

ولست أغفل هنا الإشارة إلى ظاهرة اجتماعية سيطرت على الأندلس كما سيطرت في المشرق ، عنيت بها اتخاذ الدين وسيلة إلى الدنيا وذريعة إلى الغض من الخصوم ، فقد كان السلاطين لايعفّون عن إثارة الناس على من يحقدون عليه ، كما كان بعض العلماء أسرع استجابة إلى تهييج الجماهير على من يخالف لهم مذهباً أو ينافسهم في جاه أو ينتزع منهم سلطة ، أو من يخشى إقبال الناس عليه لمواهبه وفضله وكفايته . ولا أطيل في هذا لأن حياة ابن حزم كلها خير شاهد ومثل لما قررت ، وستأتيك على جليتها .

د — أصله ونشأته وشبابه

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد . ويزيد هذا الذي إليه ينتهي نسبه كان مولى ليزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية أخي معاوية ، والذي كان القائد لجيش الأردن أيام الفتح لعهد عمر بن الخطاب . جده الأعلى (يزيد) فارسي أسلم (وكان نصرانياً[1]) نسبته للأمويين نسبة موالاة . وأول من دخل الأندلس من آبائه هو خلف وقد استوطنوا قرية (منت ليشم) أو (مُتْلِجَتْم) في أقليم (الزاوية) من عمل (أونبة) من كورة (لبلة)[2] ، على نصف فرسخ من مصب الأوديل غربي الأندلس على البحر . ثم سكن آباؤه قرطبة .

---

(١) المعلمة الإسلامية .

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان : « لبلة قصبة كورة بالأندلس كبيرة يتصل عملها بعمل أكشونية . وهي شرق من أكشونية وغرب من قرطبة ، بينها وبين قرطبة على طريق إشبيلية خمسة أيام وأربعة وأربعون فرسخاً ، وبينها بين إشبيلية اثنان وأربعون ميلا . وهي برية بحرية غزيرة الفضائل والثمر والزرع والشجر ، ولأدمها فضل على غيره ، ولها مدن . وتعرف لبلة بالحمراء . وهي مدينة قديمة فيها آثار عجيبة وهي على نهر طنتس وبها عين الشب وعين الزاج . ومن لبلة يجلب الجنطيانا أحد عقاقير العطارين . ينسب إليها جماعة منهم ... الخ

ولد بقرطبة بالجانب الشرقي من ربض منية المغيرة بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر ليلة الأربعاء ، آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٤ هـ (٧ نوفمبر سنة ٩٩٤ م) ، بهذا كتب ابن حزم بخطه إلى القاضي صاعد[1] بن أحمد الأندلسي صاحب طبقات الأمم المتوفى سنة ٤٦٢ هـ . وأسرته كما قال الفتح بن خاقان : « بنو حزم فتية علم وأدب وثنية مجد وحسب » ولي الوزارة منهم غير واحد ونالوا بقرطبة جاهاً عريضاً . وكان أبوه أحمد بن سعيد من عظماء الوزراء ، ولي الوزارة للحاجب المنصور ابن أبي عامر ثم لابنه المظفر من بعده . وهو — على رأي ياقوت — الذي بنى لبني حزم مجدهم وذكرهم . ومن الطريف أن ننقل لك شك ياقوت في نسبتهم الفارسية وهو يرويه — على ما أرجح — عن كتاب مفقود لصاعد اسمه (أخبار الحكماء) في جملة قول لابن حيان قال:

---

(١) وجميع من ترجم لابن حزم عيال على صاعد في تعيين تاريخ ولادته وفي كثير من أخباره ، وأكثرهم — ومنهم ياقوت — ينقل عبارته بنصها . ولم يشذ إلا ياقوت في كتابه (إرشاد الأريب) إذ نقل عن صاعد أن ميلاده سنة ٣٨٣ وظاهر أن هذا سهو من الناسخ أو الناشر : لأن كتاب صاعد نفسه وبقية المصادر الناقلة عنه أجمعت على أن ميلاده سنة ٣٨٤ كما ذكرت أعلاه . وذلك يتفق وقول ياقوت نفسه بأنه مات عن اثنتين وسبعين سنة .

« وكان من غرائبه انتماؤه في فارس ، واتباع أهل بيته له في ذلك ، بعد حقبة من الدهر تولى فيها أبوه الوزير ، المعقل في زمانه ، الراجح في ميزانه أحمد بن سعيد بن حزم ، لبني أمية أولياء نعمته ، لا عن صحة ولاية لهم عليه ، فقد عهده الناس خامل الأبوّة ، مولّد الأرومة ، من عجم لبلة ، جده الأدنى حديث الإسلام لم يتقدم لسلفه نباهة ، فأبوه أحمد على الحقيقة هو الذي بنى بيت نفسه في آخر الدهر برأس رابية ، وعمده بالخلال الفاضلة من الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة والرأي . فاغتدى جرثومة سلف لمن نماهم ، أغنتهم عن الرسوخ في أول السابقة . فما من شرف إلا مسوق عن خارجيته ، ولم يكن إلا : كلا ولا ، حتى تخطى عليٌّ هذا (صاحب الترجمة) رابية لبلة فارتقى قلعة إصطخر من أرض فارس ؛ فالله أعلم كيف ترقاها ، إذ لم يكن يؤتى من خطل ولا جهالة ، بل وصله بها وسع علم ، وشجته رحم معقوقة ، بلّها بمستأخر الصلة رحمه الله . »

توفي أبوه كما يروي المقري عن ابن حيان بذي القعدة سنة اثنتين وأربعمائة وكان منشؤه ومولده بقرية تعرف بالزاوية ، (من أقاليم أكشونية بالأندلس) بعد أن ساءت حاله وتتابعت

عليه المحن والنكبات والتغريم في آخر سنيه ، ولا يبعد أن يكون مات قهراً بعد ذلك العز الشامخ .

* * *

في هذا البيت نشأ ابن حزم ، نشأة المترفين المنعمين ، تحيط به العناية من كل صوب ، (يلبس الحرير ولا يرضى من المكانة إلا بالسرير[1]) ويتقلب في أعطاف النعيم ، غير مكلف بعمل حتى مات أبوه سنة ٤٠٢ هـ . ولقد ترك لنا رحمه الله معلومات قيمة عن نشأته هذه في كتابه (طوق الحمامة) ، فقد عرفنا منه شيئاً من صفة داره وسعتها وكثرة أهل بيته ، قال في معرض الكلام على جارية عرفها في صباه : « فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا ودخلة أخي رحمه الله ، من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا ، ممن يخف موضعه ويلطف محله ، فلبثن صدراً من النهار ثم تنقلن إلى قصبة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها (مساكنها) مفتحة الأبواب فصرن ينظرن من خلال الشراجيب ... الخ[2] » وهذه فقرات نقتطفها من

---

(١) كلمة صاعد فيه .

(٢) ص ١٠٨ طبع (دمشق ١٣٤٩ هـ) وعن هذه الطبعة جميع النقول التي ستمر بك .

وصفه خراب دوره ومنها نعلم ما كانت عليه من الأنس والعمران « ... بعد رجال كالليوث وخرائد كالدمى تفيض لديهم النعم الفاشية ... تلك المحاريب المنمقة والمقاصير المزينة التي كانت تشرق إشراق الشمس ، ويجلو الهموم حسن منظرها ... طالما زهدت في تركها وتذكرت أيامي بها ولذاتي فيها وشهور صباي لديها مع كواعب إلى مثلهن صبا الحليم ... بعد ما علمته من حسنها وغضارتها ، والمراتب المحكمة التي نشأت فيما لديها ، وخلاء تلك الأفنية بعد تضايقها بأهلها ... الخ[1] » وكانت نعمة والد المترجم — على مايظهر — فاشية ، وغناه مستفيضاً فكانت له دور محدثة ودور قديمة : « ثم انتقل أبي رحمه الله من دورنا المحدثة بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث ، في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة وانتقلت أنا بانتقاله وذلك في جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ[2] »

هذه هي القصور التي درج فيها ابن حزم ، أما نشأته الأولى فهي غريبة حقاً ولعلها هي السر في نبوغه وعبقريته ، بل إليها يرجع الأثر الأكبر في تخريجه على تلك الصورة الفذة التي لم

(١) ص ٩١ (٢) ص ١١٠

يشبهه فيها أحد من أعلام الإسلام ، لافي الشرق ولا في الغرب على مدى القرون المتطاولة والأجيال المتعاقبة ، ذلك أنه نشأ في حجور العالمات المربيات من أهل بيته . ولابن حزم نفسه نحن مدينون بالشيء الكثير في أخبار طفولته وبقية حياته قال :

« ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن مالا يكاد يعلمه غيري : لأني ربيت في حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تبقّل وجهي . وهن علمنني القرآن وروّينني كثيراً من الأشعار ، ودربنني في الخط . ولم يكن وكدي وإعمال ذهني منذ أول فهمي وأنا في سن الطفولة جداً ، إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك ، وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهن[1] . »

وأنعم بها من نشأة يقظة إليها الفضل في أن نتمتع بالأدب السامي الرفيع وبأحاديث الحب الرقيقة العميقة ، وبذلك الطبع السمح الظريف الذي لايعهد من إمام جليل وعالم كبير وصاحب مذهب في الدين مجتهد منافح عنه ، بل العهد في رجال الدين : جدّ صارم ، ومعيشة شاقة ، وبعد بعيد عن كل ذلك العالم الذي طار فيه ابن حزم ونهل منه وعلّ ، فلا يذهبن عنك سر نشأته في (تكييف) عبقريته .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٦

مات والد ابن حزم وكان المترجَم « أقام في الوزارة من وقت بلوغه إلى انتهاء سنه ستاً وعشرين سنة »[1] وزر للمرتضى صاحب بلنسية وحارب في جيشه بغرناطة ووقع بأيدي أعدائه سنة ٤٠٣ بعد وفاة أبيه بسنة ، ثم لما قامت خلافة عبد الرحمن المستظهر في رمضان سنة ٤١٤ وكان صديقاً لابن حزم ، وسدّ إليه الوزارة فأقام فيها أشهراً حتى مقتل عبد الرحمن في ذي الحجة من السنة نفسها . وعاد إلى الوزارة أيام هشام المعتد بين سنتي ٤١٨ — ٤٢٢ وهنا تنتهي حياته الوزارية[2] ويطلق المناصب إلى غير مارجعة .

ولنعرض الآن لما أصابه في هذه الفترة من نكبات وتشريد : عرفت أن ابن حزم مولى بني أمية وأنه وزر هو وأبوه لخلفائهم وأنه كان يتشيع للأمويين « ماضيهم وباقيهم ويعتقد بصحة

---

(١) ياقوت

(٢) في الأعلام للزركلي أنه : « كانت له ولأبيه من قبله رياسة الوزارة » ومما مر بك تعلم أنه لم ينل رياسة الوزارة (التي هي الحجابة باصطلاح ذاك العصر في الأندلس) لا هو ولا أبوه وإنما هي وزارة فقط . على هذا أجمعت كل المصادر التي اطلعنا عليها ولم ندر علام اعتمد الأستاذ خير الدين الزركلي في نقله هذا .

إمامتهم حتى نسب إلى النصب»[1] ويتعصب لهم ويشيد بمفاخرهم وربما نال خصومهم من قريش في بعض المناسبات كقوله عرضاً في مقطوعة غزلية (طوق الحمامة ص ٢٧) :

ومذ لاحت الرايات سوداً تيقنت نفوس الورى أن لا سبيل إلى الرشد

وعرفت أن عصره تداول حكم قرطبة فيه الأمويون والعلويون (الطالبيون) وابن جهور ، وكان للبرابرة والصقالبة سطوة يمارسونها في الفترات ، فاعرف أيضاً أن ابن حزم أصيب (أو تحلى - كما تحب -) بصراحة متناهية ، وصلابة قوية ، وصدع بالحق ، كل ذلك يصدم به الناس غير مبال بالعواقب ولا مستعمل فيه شيئاً مما نسميه سياسة ومداراة . وأنت خبير بأن صاحب هذه الأمزجة مضطر إلى مجابهة حروب يشنها عليه الراعي والرعية ، والعلماء والزمان من كل صوب ، فقدّر بنفسك الشدة التي عانى غمراتها وصلي بوقداتها ابن حزم .

تنكر الزمان لوالد ابن حزم بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد سنة ٤٠٠ فانكمش هو وابنه ثم مات سنة ٤٠٢ هـ ، فلما كانت فتن البرابرة وتخريبهم غادر قرطبة سنة ٤٠٤ وهي غارقة

---

(١) كلمة ابن حيان : تذكرة الحفاظ . والناصبة طائفة تبغض علياً رضي الله عنه .

في الفتن ـ وقد أخرب البرابرة قصور آل حزم الجميلة في بلاط مغيث ـ قاصداً المرية وأقام بها . فلما كاتب خيران العامري علي ابن حمود الذي حضر إلى قرطبة وملكها وقتل سليمان المستعين الأموي ، أوجس خيران من ابن حزم لتشيعه لبني أمية ، واتهمه باقيام بدعوتهم ؛ فسعى حتى اعتقله عند نفسه أشهراً ثم غرّبه إلى حصن القصر هو وصديقه محمد بن إسحاق ، وكان من حظهما أن أكرم صاحب الحصن مثواهما . فلما بلغهما المناداة بعبد الرحمن ابن محمد سنة ٤٠٨ في بلنسية ركبا إليها بحراً وحمدا فيها الإقامة ، ووزر ابن حزم للمرتضى ، ثم كان مامر بك من قتل المرتضى . عاد ابن حزم إلى قرطبة بعد غياب ست سنوات (٤٠٩ هـ) ولبث حتى كانت خلافة المستظهر ووزارة ابن حزم له أسابيع معدودة سنة ٤١٤ هـ .

ثم كانت وزارته لهشام المعتد .

ونرى من الواجب علينا أن نستمع إلى مترجمنا يحدث عن رحيله ونكباته وآثارها في نفسه لتتم للقارئ الصورة التي نتوخاها له ، قال :

« ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والتغريب والإغرام الفادح والاستتار ، وأرزمت (اشتدت) الفتنة وألقت باعها ،

وعمت الناس وخصتنا إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله ونحن في هذه الأحوال ، بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام ٤٠٢ هـ واتصلت بنا تلك الحال بعده ... ثم ضرب الدهر ضربانه ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر فخرجت عن قرطبة أول المحرم سنة ٤٠٤ هـ ... ثم دخلت قرطبة في شوال سنة ٤٠٩ فنزلت على بعض نسائنا[1] ... » ويقول في موضع آخر (طوق الحمامة ص ١١٧) : « ... إلى أن ألقت الفتنة جرانها ، وأرخت عزاليها ، ووقع انتهاب جند البربر منازلنا في الجانب الغربي بقرطبة ، ونزولهم فيها ... وتقلبت بي الأمور إلى الخروج عن قرطبة . وسكنى مدينة المرية ... إلى أن انقطعت دولة بني مروان وقتل سليمان الظافر أمير المؤمنين ، وظهرت دولة الطالبية وبويع علي بن حمود الحسني المسمى بالناصر بالخلافة ، وتغلب على قرطبة وتملكها واستمر في قتاله إياها بجيوش المتغلبين والثوار في أقطار الأندلس ، وفي إثر ذلك نكبني (خيران) صاحب المرية ، إذ نقل إليه من لم يتق الله عز وجل من الباغين (وقد انتقم الله منهم عني وعن محمد بن إسحاق صاحبي) أنا نسعى في القيام

---

(١) طوق الحمامة ص ١١٠

بدعوة الدولة الأموية ، فاعتقلنا عند نفسه أشهراً ثم أخرجنا على جهة التغريب ، فصرنا إلى حصن القصر ، ولقينا صاحبه أبو القاسم عبد الله بن هذيل التجيبي المعروف بابن المقفل ، فأقمنا عنده شهوراً في خير دار إقامة وبين خير أهل وجيران ، وعند أجل الناس همة وأكملهم معروفاً وأتمهم سيادة . ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور المرتضى عبد الرحمن بن محمد وسكناه بها ... ثم دخلت أنا قرطبة في خلافة القاسم بن حمود المأمون ... » وقال واصفاً خراب دوره وفيه ترى نثره البديع الممتع :

« وقد [1] أخبرني بعض الوراد من قرطبة وقد استخبرته عنها : أنه رأى دورنا ببلاط مغيث في الجانب الغربي منها ، وقد امّحت رسومها ، وطمست أعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيّرها البلى ، وصارت صحاري مجدبة بعد العمران ، وفيافي موحشة بعد الأنس ، وخرائب متقطعة بعد الحسن ، وشعاباً مفزعة بعد الأمن ، ومأوى للذئاب ومعازف للغيلان ، وملاعب للجان ، ومكامن للوحوش بعد رجال كالليوث وخرائد كالدمى ، تفيض لديهم النعم الفاشية ، تبدّد شملهم فصاروا في البلاد أيادي سبا ، فكأن تلك المحاريب المنمقة والمقاصير المزينة التي كانت تشرق إشراق الشمس ، ويجلو

(١) المصدر السابق ص ٩١

الهموم حسن منظرها : حين شملها الخراب وعمها الهدم ، كأفواه السباع فاغرة تؤذن بفناء الدنيا ، وتريك عواقب أهلها ، وتخبرك عما يصير إليه كل من تراه قائماً فيها ، وتزهد في طلبها بعد أن طال مازهدت في تركها ... الخ »

وكثيراً ما ترى أمثال هذه الحسرة اللاذعة بين دفتي كتابه الجميل (طوق الحمامة) من أشباه قوله ص ٧٨ : « ذكرت فيها (أي في قصيدة) ما مضنا من النكبات ودهمنا من الحل والترحال والتحول في الآفاق » وقوله ص ١٥٣ في خاتمة كتابه : « فأنت تعلم أن ذهني متقلب وبالي مهتم بما نحن فيه من نبوّ الديار ، والجلاء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغيّر الإخوان ، وفساد الأحوال ، وتبدل الأيام ، وذهاب الوفر ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة في البلاد ، وذهاب الجاه والمال ، والفكر في صيانة الأهل والولد ، واليأس من الرجوع إلى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر وانتظار الأقدار ... » وانظر ص ٧٦ تر فيها طرفاً من تنكر الأصحاب له بتنكر الزمان .

لم ينعم ابن حزم بعد نشأته بطمأنينة الاستقرار ، فضرب في الأرض مضطراً ، لايألف بلدة إلا نبت به ولحقه فيها أذى

الخصوم والحكام فيهجرها إلى غيرها ، وكيد أعدائه ألزم له من ظله . طوّف في المرية وشاطبة وبلنسية وقصد ابن عباد بإشبيلية ، وحل في جزيرة ميورقة فتواطأ عليه فقهاؤها فأخرجوه ، وحل في القيروان ثم رجع إلى الأندلس . ولم يتح له أن يرحل إلى المشرق ، إذاً لأرانا إياه في ألوانه الزاهية بريشته البديعة المصورة ، ولعرفنا رأي عالم كبير خصب القريحة في حضارة المشرق وعلومه وعلمائه . ولكن الزمن أمكر من أن يغفل عن عبقري لحظة من اللحظات .

ج ــ طلبه وعلمه ومصنفاته

« ما تمنت به الأندلس أن تكون كالعراق »
الفتح بن خاقان

أول طلبه

تقدم أن أول من لقن ابن حزم مبادئ العلوم والقرآن : نساء قصره ثم أقام في الوزارة من بعد بلوغه حتى صار له ست وعشرون سنة لم يكن له فيها طلب يذكر . وقد رووا عنه أنه قال : « إنني بلغت إلى هذه السن وأنا لا أدري كيف أجبر صلاة من الصلوات [1] » .

ولنا أن نشكر كل الشكر المجتمع النقاد الذي عاش فيه ابن حزم ، فإليه يرجع الفضل في توجيهه إلى طلب العلوم والانكباب عليها حتى كان لتاريخنا منه فصل ضاف قلما أتحفنا بمثله غيره .

أما السبب المباشر في انقطاعه إلى العلم فقد حدث به الوزير الإمام أبو محمد بن العربي قال : « أخبرني الشيخ الإمام

---

(١) إرشاد الأريب . وفيه أن (أجبر) عند أهل الاندلس بمعنى (أقضي) عند أهل المشرق .

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم أن سبب تعلمه الفقه : أنه شهد جنازة لرجل كبير من إخوان أبيه فدخل المسجد قبل صلاة العصر والحفل فيه ، فجلس ولم يركع ، فقال له أستاذه (يعني الذي رباه) بإشارة : « أن قم فصل تحية المسجد » فلم يفهم ، فقال له بعض المجاورين له : « أبلغت هذه السن ولا تعلم أن تحية المسجد واجبة ؟ ! وكان قد بلغ حينئذ ستة وعشرين عاماً . (قال) فقمت وركعت وفهمت إذاً إشارة الأستاذ إليّ بذلك . (قال) فلما انصرفنا من الصلاة على الجنازة إلى المسجد ، مشاركة للأحياء من أقرباء الميت ، دخلت المسجد فبادرت بالركوع ، فقيل لي : (اجلس اجلس ، ليس هذا وقت صلاة) فانصرفت عن الميت وقد خزيت ولحقني ماهانت عليّ به نفسي وقلت للأستاذ : « دلني على دار الشيخ الفقيه المشاور أبي عبد الله ابن دحون . » فدلني ، فقصدته من ذلك المشهد وأعلمته بما جرى فيه ، وسألت الابتداء بقراءة العلم واسترشدته فدلني عَلَى كتاب الموطأ لمالك بن أنس رضي الله عنه فبدأت به عليه قراءة من اليوم التالي لذلك اليوم ، ثم تتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحو ثلاثة أعوام وبدأت بالمناظرة » .

والمقري يحدد لنا التاريخ الذي بدأ فيه ابن حزم الطلب

بقوله : « أول سماعه سنة ٣٩٩ هـ » والذهبي جعله سنة (٤٠٠ هـ) وقول المقري يقويه ابن بشكوال في الصلة (رقم ٤٠٨) إذ يذكر مع التاريخ أستاذه الذي قرأ عليه فيه فيقول : « وأول سماعه من ابن الجسور قبل الأربعمائة » .

وهناك من يذكر سبباً ثانياً في طلبه الفقه ، يرويه عن عمر بن واجب قال : « بينما نحن عند أبي ببلنسية وهو يدرس المذهب ، إذ بأبي محمد بن حزم يسمعنا ويتعجب ، ثم سأل الحاضرين عن شيء من الفقه أجيب عليه فاعترض فيه ، فقال له بعض الحضار : « هذا ليس من منتحلاتك . » فقام وقعد ودخل منزله فعكف ، ووكف منه وابل فما كفّ ، وما كان بعد أشهر قريبة حتى قصدنا إلى ذلك الموضع فناظر أحسن مناظرة قال فيها : « أنا أتبع الحق وأجتهد ولا أتقيد بمذهب[1] » .

شيوخه وكبار تلاميذه

سمع ابن حزم من : أبي عمر أحمد بن الحسين — ويحيى بن مسعود ابن وجه الجنة — ويوسف بن عبد الله القاضي — وأبي بكر حمام بن أحمد القاضي — ومحمد بن سعيد بن سات — وعبد الله

(١) تذكرة الحفاظ . ووكف : سال قليلاً قليلاً .

ابن ربيع التميمي — وعبد الله بن محمد بن عثمان — وأبي عمر الطلمنكي — وعبد الرحمن بن عبد الله بن خالد — وعبد الله بن يوسف بن يامي.

وقرأ الفقه على أبي عبد الله بن دحون الذي مر ذكره آنفاً وروى عن القاضي يونس بن عبد الله (انظر حديثه في ص ٨ من طوق الحمامة) — وأبي محمد بن بنوش القاضي — وأبي عمر ابن الجسور — وأحمد بن محمد — وعلي بن سعيد العبدري من أهل جزيرة ميورقة وغيرهم وأخذ المنطق عن محمد بن الحسن المذحجي[1]

وذكروا من شيوخه مسعود بن سليمان بن مفلت أبو الخيار ، وعنه — على ما يظهر — أخذ القول بالظاهر حتى صار فيه إماما متفرداً قال الضبي : « مسعود .. فقيه عالم زاهد يميل إلى الاختيار والقول بالظاهر ، ذكره أبو محمد بن حزم وكان أحد شيوخه[2] »

وعين ابن حزم في كتابه (طوق الحمامة) ثلاثة من شيوخه مع الفنون التي قرأها عليهم ، أولهم أبو سعيد الفتى الجعفري (ص ٦٦) : ذكر أنه قرأ عليه معلقة طرفة بن العبد مشروحة في المسجد الجامع بقرطبة ، يروي شيخه الشرح عن أبي بكر المقرئ عن أبي جعفر النحاس . فعلمنا من هذا الخبر أن حلقات الأدب كانت حافلة

---

(١) إرشاد الاريب ، وتذكرة الحفاظ ، والصلة لابن بشكوال . وطوق الحمامة (٥٢ ، ٥٣ ، ١٠٦ ، ١٢٢ ، ١٢٤) الخ.

(٢) بغية الملتمس رقم ١٣٦١

في المساجد بالأندلس لا يتحرجون فيها من رواية الشعر وشرحه ولا يتأثمون . وثانيهم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي (ص ١١٧) وكان أستاذه في القرآن والحديث والنحو واللغة . ومجلسه مقصود بالرصافة (ص ٦٨) .

وثالثهم والد صديقه أبي بكر المصعب بن عبد الله الأزدي المعروف بابن الفرضي (ص١١٨) ، وكان قاضي بلنسية أيام أمير المؤمنين المهدي ، طلب عليه الحديث .

وله غير هؤلاء شيوخ كثيرون ، فقد أجمع المترجمون له أنه سمع سماعاً كثيراً وذكر هو نفسه أنه طلب الحديث على سائر شيوخ المحدثين بقرطبة[1] . ووصفوه بالاستكثار من علوم الشريعة والأدب ، وقرطبة إذ ذاك تغص بالفحول من العلماء .

وقرأ عليه رهط جم ، والذين أكثروا الرواية عنه جداً : تلميذه أبو عبد الله الحميدي وابنه الفضل أبو رفع ، والإمام الوزير أبو محمد بن العربي . وهذا الأخير صحبه سبعة أعوام وقرأ عليه أكثر تصنيفاته قال :

« صحبت الإمام أبا محمد علي بن حزم سبعة أعوام ، وسمعت منه جميع مصنفاته ، حاشا المجلد الأخير من كتاب (الفصل) وهو

---

(١) طوق الحمامة ١١٨

يشتمل على ست مجلدات من الأصل الذي قرأنا منه فيكون الفائت نحو السدس[١] . وقرأنا من كتاب (الإيصال) أربع مجلدات من كتاب الإمام أبي محمد بن حزم سنة ٤٥٦ ولم يفتني من تأليفاته شيء سوى ماذكرته من الناقص ومالم أقرأه من كتاب (الإيصال) . . وربما كان له شيء من تواليفه ألفه في غير بلده في المدة التي تجول فيها بشرق الأندلس فلم أسمعه ، ولي بجميع مصنفاته ومسموعاته إجازة منه مرات عديدة كثيرة ، آخر ما كان بخط اليحكمي رحمه الله[٢] . »

وممن سمع عليه أيضاً على بن سعيد العبدري المتقدم الذكر في شيوخه ، فإنه لما حل ابن حزم جزيرة ميورقة أخذ عنه العبدري الفقه واتبع المذهب الظاهري ، حتى إذا رحل إلى المشرق وحج ودخل بغداد ترك مذهب ابن حزم إلى المذهب الشافعي[٣] .

ومنهم : أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد النهري الطرطوشي المتوفى سنة ٥٥١ هـ : وهو أحد علماء المسلمين الأعلام ينسب إلى طرطوشة من بلاد الأندلس . نشأ بها وطلب العلم في البلاد

---

(١) المطبوع من هذا الكتاب خمسة أجزاء ولا يعرف لها سادس

(٢) إرشاد الأريب .

(٣) التكملة لابن الأبار ، رقم ١٤٦٧

الأندلسية ، وأخذ عن أبي الوليد الباجي وابن حزم ورحل إلى الشرق سنة ٤٤٦ هـ وحج ولقي شيوخ العراق وأقام بالشام زمناً ودرس بها . وله مؤلفات أعظمها (سراج الملوك) وله كتاب البدع (وهذا الكتاب و كتاب البدع لابن وضاح : مأخذ كتاب الاعتصام للشاطبي صاحب الموافقات) وبين وفاته ووفاة ابن رشد الكبير شهران أو ثلاثة ودفن في الإسكندرية[1] .

هذا بعض ممن أقرأهم وممن قرأ عليهم لا على سبيل الاستقصاء[2] . وحري بمن طلب العلم للعلم كابن حزم أن يستكثر من الشيوخ والطلب ويجهد في ذلك همته العالية حتى يقتعد الذروة بين العلماء ، وإن نظرة فيما تحاور به هو وخصمه الباجي من كبار علماء الأندلس ، كافية في أن تقفنا على عزيمته ونيته في طلب العلم ، وإذاً لا نستغرب ما اغترف منه ولا نستكثر عليه أن يحوز ما حاز :

دخل الباجي وابن حزم فى مناظرة فقال له الباجي : « أنا أعظم منك همة في طلب العلم لأنك طلبته وأنت معان عليه ، تسهر بمشكاة الذهب ، وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت

---

(١) عبد الوهاب عزام (مجلة الرسالة العدد ٣٣٤) .

(٢) انظر بعض ذكرياته عن أيام الطلب ص ٦٦ ، ٦٨ ، ١١٧ ، ١١٨ من (طوق الحمامة) .

في السوق » فكان من جواب عالمنا المهذب الدقيق قوله :

هذا الكلام عليك لا لك ، لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي ، وأنا طلبته في حين ماتعلمه وما ذكرته ، فلم أرج به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة [١] » فأفحمه وحق له ذلك .

وقال له مرة بعد انقضاء مناظرة بينهما : « تعذرني فإن أكثر مطالعتي كانت على منابر الذهب والفضة ! » أراد (أن الغنى أمنع لطلب العلم من الفقر [٢]) .

وهكذا لم يحظ ابن حزم بنصيبه الأوفى من العلم حتى انصرف إليه بكل عزائمه وأخلص له ولم يخلط به مأربا آخر قط . حتى إذا تمت له أدواته فيه تفرغ لنشره بين الناس فنفع الله به من شاء من خلقه في حياته ، ومن لايحصيهم إلا هو بعد مماته . وما أصدق كلمة ابن حزم في نفسه :

مناي من الدنيا علوم أبثها ... وأنشرها في كل باد وحاضر
دعاء إلى القرآن والسنن التي ... تأسى رجال ذكرها في المحاضر [٣]

كذلك كان رحمه الله .

---

(١) المقري ١ : ٣٥٨

(٢) إرشاد الاريب .

(٣) الصلة لابن بشكوال ص ٤٠٨ رقم الترجمة (٨٨٨) .

طلبه

انصرف ابن حزم إلى الطلب وأقبل على دراسة العلوم الشائعة لعصره من المنقول والمعقول حتى أربى فيها على الغاية ، فحفظ القرآن والسنن والآثار ، وطالع التاريخ والأخبار وكتب الفلسفة . وقد متع بحافظة نادرة المثال حتى قال اليسع بن حزم الغافقي : « أما محفوظ أبي محمد فبحر عجاج وماء ثجاج ... لقد حفظ علوم المسلمين وأربى على كل دين ..[1] » وكان — على ماقال الذهبي — إليه المنتهى في الذكاء والحفظ وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل والعربية والآداب والمنطق والشعر . وشهد الغزالي بأن كتابه (في أسماء الله الحسنى) يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه . برز على فحول العلماء بالأندلس حتى تفرد دونهم بميزات وكان — على حد قول صاعد — أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر ومعرفته بالسنن والآثار . وقال الحميدي : « كان أبو محمد حافظاً للحديث وفقهه مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة ، متفنناً في علوم جمة ، عاملاً بعلمه ، مارأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين » .

---

(١) تذكرة الحفاظ ، العجاج : المتلاطم ، الثجاج : الغزير الدفاق .

ولأبي مروان بن حيان : « كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعليم القديم من المنطق والفلسفة » . وقال الذهبي : « ابن حزم رجل من العلماء الكبار ، فيه أدوات الاجتهاد كاملة [1] » تمثل ابن حزم كل هذه العلوم التي درسها وصار له في كل منها رأي واجتهاد ، وترك في أكثرها تواليف جمة ضخمة تدل على ثروته الواسعة فيها وتمكنه القوي من ناصيتها ، وكان له — إلى ذلك — طبع حاد وصراحة متناهية ومعارضة قوية لمخالفيه ، حتى تبرم به الفقهاء والسلاطين فطاردوه بأنواع المقاومة من سجن وتشريد وإحراق كتب ونهي الناس عن سماعه حتى صار في الأندلس أحق من المتنبي بالكلمة المشهورة : « ملأ الدنيا وشاغل الناس » لقد ملأ ابن حزم المغرب كله بكتبه وردوده وأدبه وجدله ومذهبه ، وشغل أهله طرفاً صالحاً من حياته وأحقاباً طوالاً بعد مماته حتى لكأنه أمة وحده لا فرد من أمة ، وبحق ما قال فيه الفتح بن خاقان :

« ما تمنت به الأندلس أن تكون كالعراق ، ولا حنت الأنفس معه إلى تلك الآفاق [2] ، وما أدراك ما العراق يومئذ :

---

(١) تذكرة الحفاظ

(٢) مطمح الأنفس ص ٦٣ .

عالم يعج بحضارة ما رأى التاريخ لهـا مثيلاً فيما سبق ، ونهضة علمية ماحلم بمثلها إنسان .

ومنفرد بالذكر أسلوبه في حياته مع الناس ، بعد الكلام على مذهبه .

وخير مايعرفك بعبقريته ومكانته أن تطالع بإمعان أياً شئت من آثاره القليلة الباقية في الدين أو الأدب أو الكلام ، فستجد ثمة بحراً زاخراً من العلم ، وطرقاً متشعبة من المعارف يضل سالكها ، إلا أنك واجد ابن حزم — على هذا كله — متمكناً من موضوعه ، قابضاً على ناصيته ، متصرفاً فيه تصرف الفارس في الحلبة ، وتلك صفة نادرة في العلماء الواسعي الثقافة ، فأكثرهم ينتشر عليه أطراف موضوعه فتوجهه بدل أن يوجهها . يأخذ بيدك فلا يزال بك موغلاً في أغوار البحث ينبهك إلى ما يشاء ويصرفك عما يشاء ، حتى يوصلك إلى الهدف الذي نصبه لك قبل البدء ، فابن حزم صاحب طريقة متقنة ومنهج مضبوط منطقي متزن . وستجد مصداق هذا بوضوح إذا وصلت إلى رسالته (في المفاضلة بين الصحابة) .

خصه الله بالتعمق والغوص على الأسرار في كل ما يقرأ ويسمع ويرى ، فبينما تراه في كتابه (طوق الحمامة) عالماً من أساطين علماء النفس ، الخبيرين بدخائلها ، الغائصين على أسرارها

الدارسين لمظاهرها وبوادرها وعواقبها ، تراه في بحوثه في كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) واحداً من علماء الكلام البارعين، ذوي الحجة الدامغة والذهن اللقن ، جدلاً محنكاً لو حاول أن يريك الليل في رابعة النهار لفعل ، إذا بك تراه في كتابه « المحلى » فقيهاً مجتهداً ذا بصر ثاقب في معاني القرآن والسنن ، مستنبطاً دقيقاً لأحكام الدين وفروع الفقه ، واسع الإلمام بطرق المذاهب الفقهية خبيراً بحجج الشافعية والمالكية والحنفية ، مواهبه أقصى ما يتمناه العلماء : فكر ثاقب ، وبصر نافذ ، وملاحظة دقيقة ، ونبل نفس ، يزين ذلك كله إقامة إلى جانب الصدق طول حياته .

ليس للظاهرية مثله في جميع العصور وأكاد أقول : مارأيت أحداً بعد الصدر الأول من الأئمة، فهم الشريعة حق الفهم ، وأفهمها بإخلاص وصدق وحماسة مثل رجلين : ابن حزم هذا في المغرب وابن تيمية في المشرق ، أرسلهما الله على أهل الدس والدخائل الخبيثة ، الذين أرهقوا جسم الإسلام بما حشوه من بدع المجوسية والنصرانية واليهودية ، فكانا عليهم وعلى ما أتوا به ، صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود .

ألقيا عن الإسلام ما علق به ولقيا في سبيل ذلك من الأذى والاضطهاد مايكرم الله به كل مصلح مخلص ، حتى أبرزاه أبيض

نقياً كما بدأ فجزاهما الله خير الجزاء .

ملأ ابن حزم بعد موته كتب الفقه والحديث والتفسير ، فقلما يؤلف مؤلف في هـذه الفنون إلا اعتمد على مؤلفاته أو استشهد بأقواله أو ذكر مذهبه . وهو في حياته ما ادخر وسعاً في الإحاطة بكل مـا وصل إليه حتى كان له رأيـه في المصادر الأمهات نحن عارضون له بعد قليل .

ومن الحتم علينا أن ننبهك إلى رسالة له في فضل الأندلس أدرجها المقري في كتابه (نفح الطيب ج ٢ ص ١٢٥ — ١٢٨) لأنه يطلعك على معلمة (دائرة معارف) كاملة لمعارف الأندلسيين وعلمائهم ومؤلفاتهم ، بل إنه كتبها ليفاخر بها المشرق كله — وهو منبع العلوم والعلماء — بعلم الأندلس وعلمائها ، فلا يذكر مؤلفاً لمشرقي في فن إلا ذكر ما يقابله لأندلسي في الفن نفسه مفضلاً الثاني على الأول ، ومن الخير لك أن تطالعها لأنك مصيب بهـا فائدتين : الأولى أنك تدرك بعض الإدراك مدى الأفق الذي حلقت فيه عبقرية ابن حزم ، والثانيـة أنها تغنيك عن فهرس وتصنيف للعلوم والعلماء في الأندلس حتى زمن كتابتها .

جاء في تذكرة الحفـاظ الذهبي (ترجمة ابن حزم) :

« ذكر لابن حزم قول من يقول : (أجل المصنفات الموطأ) فقال :

« بل أولى الكتب بالتعظيم · (الصحيحان) و (صحيح) سعيد بن السكن ، و (المنتقى) لابن الجارود ، و (المنتقى) للقاسم بن أصبغ و (مصنف الطحاوي) و (مسند البزار) و (مسند ابن أبي شيبة) و (مسند أحمد بن حنبل) و (مسند ابن راهويه) و (مسند الطيالسي) و (مسند الحسن بن سفيان) و (مسند سنجر) و (مسند عبد الله بن محمد المسندي) ، و (مسند يعقوب بن شيبة) و (مسند علي بن المديني) و (مسند ابن أبي غرزة) وما جرى مجرى هذه الكتب التي أفردت لكلام رسول الله ﷺ صرفاً ·

ثم بعدها التي فيها كلام غيره : مثل (مصنف عبد الرزاق) و (مصنف أبي بكر بن أبي شيبة) و (مصنف بقي بن مخلد) وكتاب (محمد بن نصر المروزي) و (كتاب أبي بكر بن المنذر الأكبر ، والأصغر) · ثم (مصنف حماد بن سلمة) و (مصنف سعيد بن منصور) و (مصنف وكيع) و (مصنف الفريابي) و (موطأ مالك بن أنس) و (موطأ ابن أبي ذيب) و (موطأ ابن وهب) و (مسائل أحمد بن حنبل) و (فقه أبي عبيد) و (فقه أبي ثور) · »

فما ظنك بمن استحضر ذهنه على البديهة تلك الأمهات الفخام

لفن واحد ، واعرف بعد هذا أن المصنفات التي ذكرها لا تجدها في موضع واحد في أي كتاب أو فهرس فتحته في المكتبة العربية ، ثم انظر مبلغ إحاطته وتمكنه وفحولة أحكامه التي يرسلها في كبار المصنفين الأئمة ، مقارناً بينهم وموازناً بين آثارهم الجليلة ، تؤمن بسعة علمه وبعد غوره ، حتى كان من اعتداده بنفسه — على تواضعه المشهور — أن قال في أحد أئمة الأندلس الكبار بقيّ ابن مخلد حين عرض لتفسيره : « أقطع أنه لم يؤلف في الإسلام مثل تفسيره ، لا تفسير محمد بن جرير ولا غيره [1] » وقال عن مسنده : (مسند بقي روى فيه عن (١٣٠٠) صاحب ونيف ، ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه فهو مسند ومصنف ، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله ، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث [1] » ، « وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين ممن ذكرهم ، أربى فيه على مصنف أبي بكر بن أبي شيبة ، وعلى مصنف عبد الرزاق وعلى مصنف سعيد بن منصور » [1] . ثم قال لافظاً نتيجة رأيه في بقي : « [1] فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام وكان

---

(١) المقري ١ : ٥٨٠ ، وبقي ولد في رمضان سنة ٢٠١ هـ ومات في جمادى الآخرة سنة ٢٧٦ هـ .

متخيراً لا يقلد أحداً و كان جارياً في مضمار البخاري ومسلم والنسائي» .

سقت إليك أقواله في بقي لترى الفرق بينه وبين من شاركوه في العلم الغزير من الأئمة العظام المجتهدين ، لقد تفرد بينهم بميزة حسن الموازنة وإتقانها ، إنه فاضل بين مسنده ومصنفه وبين مسندات غيره ومصنفاته فدل على سعة إحاطة بفنه ثم حكم له بالتفضيل ، ثم وضعه حيث يستحق إلى جنب البخاري ومسلم والنسائي . وكأنه — رحمه الله — أحد مؤرخي العلوم والآداب على الطريقة الفنية الغربية لعصرنا الحديث .

ولا تستغرب بعد هذا احتجاج العلماء على اختلاف فنونهم بآراء ابن حزم الذي أسعده الله فيسر له كل ما يفتح العبقرية منذ نعومة أظفاره . والذي هيأ الله له « فجمع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمسندات كثيراً ، وسمع سماعا جماً [1] » . وستجد أمراً مألوفا إذا فتحت أي رسالة صغيرة في الحديث أو غيره مثل (الإجابة : لإيراد مااستدركته عائشة على الصحابة [2]) التي أخرجناها قبل شهور ، فوجدت مؤلفها الزركشي يستشهد بأحكام ابن حزم في الحديث تخريجاً وتأويلاً وتجريحاً وتوثيقاً .

---

(١) ابن بشكوال في الصلة .

(٢) طبع المكتبة الهاشمية بدمشق .

حسبك هذا وأعجب معي من هذه الذخيرة التي خلفها لنا ابن حزم :

مصنفاته :

غرف ابن حزم من جميع العلوم التي كانت في متناوله ، وترك كتباً في المنطق والفلسفة ، إلا أنه قد استكثر جداً من علوم الشريعة وأوغل فيها لذا كانت أكثر مؤلفاته شرعية ، ومع أنه صنف المصنفات القيمة في كل العلوم التي تحقق بها ، نراه قد عني العناية كلها بأمر واحد هو تأييد المذهب الذي اعتمد عليه حتى آخر حياته ، عنينا به مذهب الظاهرية : فقد نافح عنه وطلب له الحجج والمؤيدات إلى أن مات وترك في ذلك آثاراً كثيرة تطفح بنصرته والحملة على خصومه وشرح أصوله وفروعه ، ببيان قوي سهل محبوب يذكرنا ببلاغة الجاحظ ، ولا شك أن ابن حزم — في سعة معارفه وبلاغة أسلوبه — هو جاحظ الأندلس بلا منازع .

ومن المؤسف حقاً أن يضيق علماء عصره وحكامه ، بحرية ابن حزم وصراحته ، حتى أشهروا عليه وعلى كتبه حرباً عواناً لا هوادة فيها ، وحتى بلغ بهم الغيظ أن أحرقوا كتبه علناً في إشبيلية كما سيأتي ، فكان ما عرفنا اسمه من مؤلفاته قليلاً وأقل منه ما وصل إلينا ومع ذلك فإنه شيء عظيم .

ولقد ذكر أبو مروان بن حيان في كلام له أنه كمل من مصنفات ابن حزم وقر بعير لم يجاوز أكثرها عتبة باديته لزهد الفقهاء فيها ، حتى لأحرق بعضها بإشبيلية ومزقت علانية . اهـ

ولقد بلي من حساده بأصناف البلاء وشكاهم في شعره ، ومن قوله في إحراق ابن عبّاد كتبه :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلّت ركائبي ... وينزل إن أنزلْ ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رَقّ وكاغد ... وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلا فعودوا في المكاتب بدأة ... فكم دون ما تبغون لله من ستر[1]

قال صاعد : أخبرني ابنه الفضل المكنى أبا رافع ، اجتمع عندي بخط أبي من تواليفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارضين ، نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة . ثم قال صاعد : « وهذا شيء ما علمناه من أحد ممن كان في دولة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر بن جرير الطبري ، فإنه أكثر أهل الإسلام تأليفاً . ذكر الفرغاني في كتابه المعروف بالصلة وهو الذي وصل به تاريخ أبي جعفر الطبري الكبير :

---

(١) إرشاد الأريب ، نفح الطيب .

«أن قوماً من تلاميذ أبي جعفر أحصوا أيام حياته مذ بلغ الحلم إلى أن توفي في سنة ٣١٠ هـ وهو ابن ست وثمانين سنة، فصار منها لكل يوم أربع عشرة ورقة. وهذا لا يتهيأ لمخلوق إلا بكرم عناية الباري به وحسن تأييده»[1] اهـ.

ولا بد من التنبيه على أمر ذي بال وهو أن ابن حزم أدمج كثيراً من رسائله في كتابه الكبير (الفصل في الملل والأهواء والنحل) ونستطيع بقليل من مقابلة أسمائها بمواضيع فهرس الكتاب أن نجد شبهاً بين بعض مواضيع كتابه وبعض أسماء كتبه: كالكلام على تحريف اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل، وكقوله في الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة، وكرسالته هذه (في المفاضلة بين الصحابة) وغيرها.

وإليك الآن أسماء كتبه التي وصلت إلينا مرتبة على حروف المعجم[2]:

---

(١) طبقات الأمم، نفح الطيب، تذكرة الحفاظ، إرشاد الأريب، أخبار الحكماء للقفطي

(٢) اعتمدنا في حصر مؤلفاته على المصادر الآتية: كشف الظنون، تذكرة الحفاظ، نفح الطيب، إرشاد الأريب، أخبار الحكماء، طبقات الأمم، مطمح الأنفس، الفصل، مجلة المجمع العلمي العربي — ابن خلكان، المعلمة الاسلامية، بروكلمان، وبعضها لم يذكره أحد وإنما عثرنا عليه عرضاً. وعلى من يريد معرفة أماكن وجودها اليوم أن يرجع إلى (بروكلمان)

١ — إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد

(بروكلمان ، المعلمة الاسلامية)

٢ — الاتصال

هكذا ذكره في كشف الظنون ٢٥٨:٢

٣ — أجوبة (كالأجوبة على المسائل المستغربة من البخاري لابن عبد البر)

قال في كشف الظنون بعد ذكر كتاب ابن عبد البر : ولأبي محمد بن حزم عدة أجوبة عليه

٤ — الإحكام لأصول الأحكام

(بروكلمان ، مطبع الأنفس ، كشف الظنون

مطبوع في مجلدين

٥ — الأخلاق والسير

طبع (بالقاهرة ١٩٠٨)

٦ — أخلاق النفس

ذكره ياقوت

٧ — الاستقصاء

لم يذكره أحد وإنما عثرنا عليه في رسالة الزركشي (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) (ص ٧٩ طبع المكتبة الهاشمية بدمشق) .

٨ — أسماء الصحابة الرواة وما لكل منهم من الأحاديث
(بروكلمان ، الذيل)

٩ — أسماء الله الحسنى (بروكلمان ، الذيل)

قال الغزالي : « وجدت في أسماء الله الحسنى كتاباً ألفه أبو محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه » تذكرة الحفاظ

١٠ — الأصول والفروع (بروكلمان ، الذيل)

١١ — اظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والانجيل وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل (١) .

١٢ — الإمامة والسياسة (بروكلمان ، الذيل ، كشف الظنون ، ارشاد الأريب) .

في قسم سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها (ياقوت ، المقري) واسمه في المقرى : الإمامة والخلافة .

١٣ — الإيصال الى فهم كتاب (الخصال الجامعة لمحصل (٢) شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام) [والسنة والاجماع]
(بروكلمان ، الذيل)

قال في كشف الظنون بصدد الكلام على كتاب (الخصال الجامعة لمحصل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام) : « شرحه ابن حزم وسماه (الإيصال إلى فهم كتاب الخصال)

---

(١) في معلمة الإسلام : « تبديل اليهود .. » بحذف كلمة إظهار

(٢) في بعض المصادر : لجمل ولعله تصحيف .

وهو شرح كبير أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة في مسائل الفقه ودلائله » زاد ابن خلكان : «والحجة لكل طائفة وعليها وهو كتاب كبير » .

قال الإمام الوزير أبو محمد بن العربي (أحد كبار تلاميذ ابن حزم القارئين عليه أكثر تواليفه) : كان عند الإمام أبي محمد بن حزم كتاب الإيصال في أربعة وعشرين مجلداً بخط يده ، وكان في غاية الإدماج . إرشاد الأريب .

١٤ — **البيان عن حقيقة الإيمان** (الذيل)

١٥ — **التعقيب في نقد زكريا الرازي** في كتابه (العلم الإلهي) (الذيل)

أشار إليه ابن حزم في كتاب الفصل : ١ : ٣

١٦ — **التقريب لحدود المنطق** (الذيل ، صاعد ، كشف الظنون)

والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية ، لا بألفاظ الفلاسفة . جاء في كشف الظنون (١ : ٣١٩) : « تقريب في المنطق لابن حزم الظاهري : وهو مختصر جعله مدخلاً إليه وأورد الأمثلة الفقهية بألفاظ عامية بحيث أزال سوء الظن عنه » . وقد عاب هذا الكتاب كثير ممن ترجموا له فقال صاعد في (طبقات الامم ص ١١٨) :

« بسط فيه القول على تبيين طرق المعارف ، واستعمل فيه أمثلة فقهية وجوامع شرعيـة وخالف (أرسطاطاليس) واضع هذا العلم في بعض أصوله مخالفة من لم يفهم غرضـه ولا ارتاض في كتابه . فكتابه من أجل هذا كثير الغلط ، بيّن السقط . »

وقال أبو مروان بن حيان (إرشاد الأريب ترجمة ابن حزم) : « وله في بعض تلك الفنون (يعني المنطق والفلسفة) كتب كثيرة غير أنه لم يخـل فيها من غلط وسقط لجراءته في التسور على تلك الفنون لا سيما المنطق ، فإنهم زعموا أنه زل هنالك ، وضل في شكول المسالك ، وخالف أرسطاطاليس واضعه ، مخالفة من لم يفهم غرضه ولا ارتاض . »

١٧ — **التلخيص لوجوه التخليص** (الذيل) وفي بعض المصادر : (التلخيص والتخليص)

في المسائل النظرية وفروعها التي لا نص عليها في الكتاب والحديث .

١٨ — **تنوير المقباس** (الذيل)

١٩ — **التوفيق الى شارع النجاة باقتصار الطريق** (الذيل)

٢٠ — **الجامع في صحيح الحديث باقتصار الاسانيد** (الذيل)

زاد ياقوت : والاقتصار على أصحها واجتـلاب أكمل ألفاظها وأصح معانيها .

٢١ — **جمهرة الأنساب** (بروكلمان ، المعلمة الاسلامية ، كشف الظنون)

عيّنت المعلمة الإسلامية وضع هذا الكتاب في سنة ٥٠٤ هـ وذكرت أن ابن خلدون يعتمد عليه ويذكره كثيراً في كتابه . نشر وترجم في مدريد عام ١٨٩٢

وجاء في النشرة الشهرية لدار الكتب (يولية ١٩٣٨) عن هذا الكتاب ما يلي :

أوله : (الحمد لله مبيد القرون الأول ، ومزيل الدول ، خالق الخلق ...) صدّره بجملة من الأحاديث الدالة على فضل النسب ، وبين أن من فوائده اختيار الخليفة من القرشيين ، وذكر باباً في أقسام الفن جملة . ثم ذكر أولاد عدنان من ولد إسماعيل ، وأولاد كنانة ، وأولاد النضر ، وأولاد فهر ، وأولاد عبد المطلب ، وأولاد أبي طالب وغيرهم على سبيل الإجمال ، ثم ذكر قبائل العرب وأنسابهم وبطونهم وأفخاذهم وما تفرع منهم (١)

٢٢ — **الحدود** (٢)

٢٣ — **الدرة في تدقيق الكلام** فيما يلزم الإنسان اعتقاده والقول به في الملة والنحلة باختصار وبيان (الذيل)

---

(١) نسخة دار الكتب هذه مأخوذة بالتصوير الشمسي عن الأصل المخطوط الخاص بالأستاذ بروفنسال .

(٢) تهذيب التهذيب ٧ : ١٨٥

٢٤ — رسالة عمن حكم من قال : ان أرواح اهل الشقاء معذبة الى يوم الدين (الذيل)

وفي الجزء الثالث من (الفصل) ص ٨٣ هذا العنوان : بقاء أهل الجنة والنار أبداً .

٢٥ — رسالة له أجاب فيها عن رسالتين سئل فيهما سؤال التعنيف ؟ كذا ذكر بروكلمان في (الذيل)

٢٦ — السيرة النبوية (الذيل ، تذكرة الحفاظ)

قال الذهبي : في مجلد .

٢٧ — شرح أحاديث الموطأ والكلام على مسائله (الذيل ، ياقوت)

٢٨ — الصادع في الرد على من قال بالتقليد (الذهبي ، ياقوت)

في إرشاد الأريب : الصادع والرادع على من كفّر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على من قال بالتقليد .

٢٩ — طوق الحمامة في الألفة والألاّف .

أشهر من أن يذكر وطبع مؤخراً بدمشق (١٣٤٩ هـ) والغريب أن صاحب كشف الظنون ذكر بهذا الاسم كتاباً للسيوطي وأهمل كتاب ابن حزم . والمطبوع من هذا الكتاب (في ليدن ١٩١٤م ثم في دمشق) هو مختصره حسبما أثبت في آخره

٣٠ — الفصل في الملل والأهواء والنحل

معروف مطبوع في خمسة أجزاء ، ذكر الذهبي في (تذكرة الحفاظ) أنه ثلاث مجلدات

وهو على ما جاء في إرشاد الأريب — وإليه أميل — ست مجلدات وقد قرأ منها ابن العربي خمسة فقط والظاهر أن السادس مفقود .

٣١ — فصل في معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها (الذيل)

٣٢ — فصل هل الموت آلام أم لا (الذيل)

٣٣ — في الإجماع ومسائله (على أبواب الفقه) (الذيل)

٣٤ — في الاعتقاد (تذكرة الحفاظ)

رسالة نقضها أبو بكر بن العربي .

٣٥ — في الإمامة (الذيل)

لعله الذي مر باسم (الإمامة والسياسة) ولابن حزم فصل في الإمامة في كتابه الكبير (الفصل) ٤ : ٨٧

٣٦ — في الرد على ابن تغريبلا اليهودي (الذيل)

٣٧ — في الرد على الرهاوي ضد بعد ؟ (الذيل)

٣٨ — في الغناء الملهي : أمباح هو أم محظور (الذيل)

٣٩ — في مسألة الكلب ؟ (الذيل)

٤٠ — **في المفاضلة بين الصحابة** (الذيل ، مجلة المجمع العلمي العربي ١٢ — ٧٠٤)

هي التي ستقرؤها بعد .

٤١ — **فيما خالف فيه** أبو حنيفة ومالك والشافعي جمهور العلماء وما انفرد به كل واحد ولم يسبق إلى ما قاله .

قال الذهبي (تذكرة الحفاظ) : « ذكر اسم هذا الكتاب هو في أثناء الفرائض من المحلى . ولا ريب أن الأئمة الكبار تقع لهم مسائل ينفرد المجتهد بها ولا يعلم أحداً سبقه إلى القول بتلك المسألة ، قد تمسك فيها بعموم أو بقياس أو بحديث صحيح عنده والله أعلم . »

٤٢ — **كشف الالتباس لما بين الظاهرية وأصحاب القياس** (الذيل) وفي بعض المصادر : كشف الالتباس بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس .

٤٣ — **المجلى شرح المحلى** (الذهبي ، الذيل)

في ثمانية مجلدات

٤٤ — **المحلى بالآثار : في الفقه**

مطبوع معروف ، قال الذهبي « على مذهبه واجتهاده » وروى قول الشيخ عز الدين بن عبد السلام : « ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل (المحلى) لابن حزم و (المغني) للشيخ الموفق » (تذكرة الحفاظ)

٤٥ — مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل :
صغير طبع مراراً

٤٦ — مراتب الإجماع (الذيل)

٤٧ — مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلم بعضها ببعض
(الذيل ، مطمح الانفس ، كشف الظنون ، الفصل)

٤٨ — منتقى الإجماع (الذيل)
ذكره الذهبي في التذكرة وزاد ياقوت : « وبيانه من جملة ما لا يعرف فيه اختلاف »

٤٩ — الناسخ والمنسوخ (الذيل)
طبع في مصر بهامش تفسير الجلالين .

٥٠ — النبذة الكافية في أصول أحكام الدين (الذيل)

٥١ — النصائح المنجية من الفضائح المخزية والقبائح المردية عن أقوال أهل البدع والفرق الأربعة المعتزلة والمرجئة والخوارج والشيعة . (الذيل)

٥٢ — نقط العروس (الذيل ، معلمة الاسلام)
صغير جمع فيه كل غريبة ونادرة مفيدة ، وهو — على ما جاء في معلمة الإسلام — في تواريخ الخلفاء .

٥٣ — نكت الإسلام نشر وترجم إلى الإسبانية في (غرناطة سنة ١٩١١) .

جزء رآه أبو بكر ابن العربي ورد عليه قال : « فيه دواهي فجردت عليه نواهي » تذكرة الحفاظ

. . .

هذا ما وصل اطلاعنا إليه ولا شك أن له كتباً كثيرة ضاعت أسماؤها أيضاً ، فالمقري يذكر عرضاً (٢ : ١٣٦) أن له كتباً جمة في التواريخ مثل (نقط العروس) . ولو أن مؤرخاً لازمه في حله وترحاله لروى لنا أسماء مجلدات كثيرة ما نعلم الآن عنها شيئاً .

مات صاحب هذا الكنز الزاخر ، بعد أن ملأ الأندلس حركة فكرية عنيفة أثارها سلبية وإيجابية ، وجعل مجالس العلم وأقطاب الفكر معسكرين أنصاراً وخصوماً . ولكن حيوية ابن حزم لم تنقطع بموته ، بل بقيت مستمرة تعمل عملها بعده زمناً طويلاً . وإن شئت فامرد كتاب (التكملة) لابن الأبار أو (الصلة) لابن بشكوال ، أو (بغية الملتمس) للضبي ، أو غير هذه الموسوعات ، لترى : كم من أصحاب العلم والفكر حملوا أنفسهم على الرد عليه أو الانتصار له ، وهذا غاية ما يؤثره ذو رسالة سامية من الآثار .

د ـــ مذهبـــه

لم يعتنق ابن حزم في الفقه المذهب الشائع في الأندلس لعهده ، وهو مذهب الإمام مالك بن أنس ؛ وإنما اتخذ فيه مذهب الإمام الشافعي ، وظفق يدافع عنه حتى عرف به بين العلماء ونصب نفسه هدفاً لأتبـاع غيره من المذاهب المستفيضة بالأندلس ، « فاستهدف بذلك لكثير من الفقهاء وعيب بالشذوذ »[1] ولا جرم ففي جبلّة ابن حزم ثورة فطرية على التقليد ، فلما اشتد واستحكم عدل عن مذهب الشافعي واجتهد لنفسه على قواعد أهل الظاهر ، ولزم دعوة الظاهرية ينشرها ويؤيدها في أكثر تصانيفه وينافح عنها خصومها بقوة وعنف ونشاط حتى مات رحمه الله .

إمام هذه الطائفة وأول من قال بالظاهر هو داود بن علي الأصفهاني المتوفى سنة (٢٧٠هـ) « أخذ بالكتاب والسنة وألغى ما سوى ذلك » من رأي وقياس . وألف كتباً كثيرة في الفقه على أصوله بلغت قريباً من المئتين ، على فضل وعلم وورع وصدق . وعلى خطته درج ولده محمد وتتابعت بعدهما أئمة الظاهريين[2] .

---

(١) إرشاد الأريب .

(٢) انظر أئمة المدرسة الظاهرية وما خلفوا من الكتب في فهرست ابن النديم .

قال الشهرستاني : « ومن أصحاب الظاهر مثل داود الأصفهاني وغيره ممن لم يجوز القياس والاجتهاد في الأحكام وقال : (الأصول هو الكتاب والسنة والإجماع فقط) ومنع أن يكون القياس أصلاً من الأصول وقال : (أول من قاس إبليس) وظن أن القياس أمر خارج عن مضمون الكتاب والسنة ، ولم يدر أنه طلب حكم الشرع من مناهج الشرع ، ولم تنضبط قط شريعة من الشرائع إلا باقتران الاجتهاد به ، لأن من ضرورة الانتشار في العالم : الحكم بأن الاجتهاد معتبر . وقد رأينا الصحابة كيف اجتهدوا وكم قاسوا ، خصوصاً في مسائل الميراث من توريث الإخوة مع الجد وكيفية توريث الكلالة وذلك مما لا يخفى على المتدبر لأحوالهم . . . »[1]

وقد ترك الظاهريون المشكلات التي لم تخطر للنبي ﷺ ولا لأصحابه من حملة السنة ووقفوا عندها ، وانتشر مذهبهم بعض الانتشار في العراق وفارس وخراسان ، وكان منهم أناس في بلاد الشام ، في حين لم يكن بالأندلس منهم لعهد ابن حزم غيره . وقد حفظ الشعراني في ميزانه والرازي في تفسيره والمقريزي ، أنماطاً وقضايا للظاهرية فانظرها ثمة وعدوا ممن قال بالظاهر الإمام

(١) ٢ : ٤٥ على هامش كتاب الفصل لابن حزم .

أحمد بن حنبل أحد الأئمة الأربعة ، فهو بتركه القياس وأخذه بالمأثور ووقوفه عند النصوص أشبه الظاهرية .

جاء في رسالة للشيخ محمد الشطي . « ولما كان الإمام أحمد من أئمة الظاهر كداود بن علي الظاهري وابن حزم وغيرهما التزم البعض من متقدمي فقهاء الحنابلة نقل أحكام مذهب داود وغيره ككتاب رؤوس المسائل لأبي الخطاب محفوظ ... والرعايتين الصغرى والكبرى لابن حمدان وغيرهـا من الكتب المعتمدة في المذهب[1] . »

والظاهريون بوقوفهم عند النصوص وطرحهم القياس كانوا إلى الرخصة والتسامح في بعض المسائل وإلى الشدة في بعض حتى إن المرء ليعجب من بعض أحكام يطبقونها ، فمن أمثلة ذلك :

أنهم يوجبون غسل الإناء من ولوغ الكلب (لظاهر الحديث) ولا يغسلونه من ولوغ الخنزير[2] لعدم وجود نص في الغسل من ولوغ الخنزير على التعيين .

---

(١) مجموع يشتمل على رسالتين الأولى في مذهب داود الظاهري جمع محمد الشطي والثانية في مسائل شيخ الإسلام ابن تيمية جمع برهان الدين ابن قيم الجوزية ص ٣ (دمشق سنة ١٣٣٠ هـ مطبعة روضة الشام)

(٢) المصدر السابق ص ٧

وهم يعدون الكلب والخنزير طاهرين ، وتطهر جلودهما بالدباغ[١] ولا يشترطون الطهارة للصلاة على الجنازة[٢] .

ويجوزون للجنب قراءة القرآن والجلوس بالمسجد[٣] .

ولهم إزاء أمثال هذه الرخص تشديدات ألجأهم إليها الأخذ بحرفية النصوص ، من ذلك :

أنهم لم يشترطوا في البيع صيغة ما كبعض المذاهب واكتفوا بمجرد التراضي ، وهذا يسر ظاهر ، إلا أنهم أوجبوا فيه الإشهاد[٤] فرجع البيع في مذهبهم أشد منه في المذاهب الأخرى .

وأنهم جعلوا أكل لحم الجزور ناقضاً للوضوء[٤] أخذاً بألفاظ الحديث المشهور ، والرسول إنما أمر أصحابه بالوضوء بعد أكل لحم الجزور ستراً على الذي أحدث .

وأنهم أوجبوا غسل اليد ثلاثاً بعد النوم وحكموا بنجاسة الماء الذي مسته يد مستيقظ لم يغسل[٥] .

وإليك هذا المثال الأخير لتعرف طراز أخذهم بالظاهر :

« الماء ينجس إذا بال فيه بائل لحديث (لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه) فلو بال في إناء وصبه في الماء

---

(١) المصدر السابق ص ٧ أيضاً (٢) ص ١٠ (٣) ص ٢٠
(٤) ص ٩ (٥) ص ٦

أو بال على شيء فجرى البول إلى الماء فلا ينجس ! !(١) »

وأظن في هذا القدر كفاية في إطلاعك على أنماطهم في النظر ، وأصبح مذهبهم سمحاً سهلاً في أمور وشديداً في أمور . ومن الطريف أن تطلع على المسائل التي جمعها الشطي في مذهب داود وتقابلها بأمثالها في المذاهب الأخرى . وقد جاء في ختام الرسالة المذكورة : « ومن أراد الاطلاع على مذهب داود فعليه بكتب الإمام ابن حزم الظاهري وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي(١) » .

ولم يخل الأمر من حملة عنيفة يسوقها عليهم خصومهم : شأن كل مذهب ، فنرى القاضي أبا بكر بن العربي يصمهم بأنهم : « أمة سخيفة تسورت على مرتبة ليست لها ، وتكلمت بكلام لم تفهمه ، تلقفوه من إخوانهم الخوارج حيث تقول : لا حكم إلا لله » وقال عنهم :

« يقولون : (لا قول إلا ما قال الله ، ولا نتبع إلا رسول الله ، فإن الله لم يأمر بالاقتداء بأحد ولا بالاهتداء بهدي بشر .) فيجب أن يتحققوا أنهم ليس لهم دليل وإنما هي سخافة وتهويل » ثم قال يوصي أصحابه بالطريق إلى تعجيزهم : « فأوصيكم وصيتين : ألا تستدلوا عليهم ، وطالبوهم بالدليل ، فإن المبتدع إذا استدللت

---

(١) المصدر السابق ص ٦ (٢) المصدر نفسه ص ٢٧

عليه شغب ، وإذا طالبته بالدليل لم يجد إليه سبيلا .

فأما قولهم : (لا قول إلا ما قال الله) فحق ، ولكن أرني ما قال الله . وأما قولهم : (لا حكم إلا لله) فغير مسلّم على الإطلاق ، بل من حكم الله أن يجعل الحكم لغيره مما قاله وأخبر به ، فصح أن رسول الله ﷺ قال : « وإذا حاصرت أهل حصن فلا تنزلهم على حكم الله فإنك لا تدري : ما حكم الله ؟ ولكن أنزلهم على حكمك . » وصح قوله : عليكم بسنتي وسنة الخلفاء ... الحديث »[1] اه

هذا ولست بصدد شرح آراء الموافقين والمخالفين ، فإن جمود المذهب على ظاهر النصوص أورثه بطئاً في حركة انتشاره حتى لم يعدُ طائفة خاصة ، ثم انقرض مع الزمن ، ولم يرزق ما رزقت بقية المذاهب من الانتشار ، لفقدانه المرونة الضرورية لكل زمان ومكان ، فاندثر ليبقى الأنسب .

خذ أيًّا شئت من كتب ابن حزم في الدين : الإحكام ، أو المحلّى أو غيرهما ، فستجد أينما قرأت أمثلةً من نظره الظاهري ووقوفه عند حرفية النصوص ، انظر مثلاً نقده لـ (فليلزم الجماعة) ص ١٩١ فتراه نقداً ظاهرياً يتعلق بالألفاظ لا يحيد عن مدلولها ،

---

(١) تذكرة الحفاظ .

وكذلك نقده القول المعروف (الشيطان مع الواحد) فقد رده بأن انفراد الرجل في بيته غير منكر وقد قال رسول الله ﷺ (يرحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده) ، ومالي أشرع في ضرب الأمثلة ورسالة (المفاضلة بين الصحابة) هذه من أولها إلى آخرها بحث محكم على قواعد مذهبه الظاهري ، وقد وفق فيها وفي طريقة معالجة موضوعها توفيقاً يشعر بلذته القارئ المدقق .

وكأن القدر وضع ابن حزم بموضع المخالف المجاهد ، فاتباعه الشافعي أول الأمر جر عليه عداوة الفقهاء وتشنيعهم ، والقول بالظاهر بعد ذلك ، ألّب عليه وعلى نحلته أقواماً لا قبل له بهم ، ومع هذا استصغر الأذى في سبيل ما يرى أنه الحق وصمد لخصومه وكافحهم ولم يلق السلاح من يده حتى فارق الحياة ، بعد أن ملأ المغرب بدعوته وهو فرد ، كما اعترف خصمه العنيد أبو بكر بن العربي على ما يأتي

ومن قصيدة لابن حزم تراها في موضع آخر أبيات يشرح فيها وجهة النظر الظاهرية وهي :

فقلت : هل عيبهم لي غير أني لا ... أقول بالرأي إذ في رأيهم أفن

وأنني مولع بالنص لست إلى ... سواه أنحو ولا في نصره أهن

لا أنثني نحو آراء يقال بها في الدين، بل حسبي القرآن والسنن

وخير لنا في وقفك على جهاده وما تحمله في سبيل دعوته، أن نسوق إليك قول أبي مروان بن حيان، فقد لخص لنا مجمل ما لاقى في حياته من اضطهاد وإعراض في سبيل مذهبه، قال:

« ثم عدل إلى الظاهر فنقّحه وجادل عنه، ولم يكن يلطف صدعه بما عنده بتعريض ولا يرقّه بتدريج، بل يصك به معارضه صك الجندل وينشقه إنشاق الخردل، فينفر عنه القلوب ويقع به الندوب، حتى استهدف إلى فقهاء وقته، فتمالؤوا عليه، وأجمعوا على تضليله، وشنعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنوّ منه. فطفق الملوك يُنصّرنه (يبعدونه) ويسيّرونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به منقطع أثره وهي بلدة من بادية لبلة وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع: يبث علمه لمن ينتابه من

بادية بلده من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة، يسمعهم ويفقههم ويدارسهم، كل من مصنفاته وقر بعير، لم يجاوز أكثرها عتبة باديته لزهد الفقهاء فيها، حتى لأحرق بعضها بإشبيلية ومزقت علانية الخ »

على أنه قد وجد بعض التأييد من حاكم جزيرة ميورقة: العباس بن أحمد بن رشيق، فقد استدعاه إلى جزيرته بعد أن كانت

الفتيا فيها على مذهب مالك فلبى الدعوة ودخلها بعد سنة ٤٣٠هـ فنشر مذهب الظاهرية في كنفه حتى فشا، وكانت تقوم المناظرة بينه وبين خصومه في مجلس الحاكم نفسه، حتى إن أبا الوليد بن البارية الميورقي الفقيه المالكي لما ناظره بمجلس ابن رشيق، لم يستطع الوقوف لابن حزم وأتى ببعض الهفوات فأغلظ عليه القول ابن حزم، وعظم عليه ما أتى، ثم سجنه ابن رشيق أياما ولم يطلقه حتى أشهد عليه بالتوبة. وتركه يخرج إلى الحج فتوفي في وجهه. هذه هي كل الحماية التي ظفر بها ابن حزم.

ومن الغريب أن بعض الناس استغلوا تشيعه لبني أمية فرموه ببغض علي أي بالنصب. وما أكثر ما يلقى من نصب نفسه لقول الحق والصدع به، بمزاج مثل مزاج ابن حزم صراحة وصدقاً وعدم مبالاة وإهمالاً للعواقب تجر عليه ما جرت.

وليس لأصحاب مذهب الظاهر كتب نعرف منها آراءهم وأصول مذهبهم إلا ما سمح ببقائه الدهر من كتب ابن حزم حتى قيل على ما مر بك آنفاً: «من أراد الاطلاع على مذهب داود فعليه بكتب الإمام ابن حزم الظاهري وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي» ولا ريب أن ابن تيمية عيال في هذا على ابن حزم.

هذا وقد أطبق الذين ترجموا له على ورعه وتدينه وزهده

وتحريه للصدق ، وتواضعه ولين جانبه ، مع عمل صالح وجرأة نادرة ، وصبر طويل واحتمال في ذات الله ، إلى فضائل جمة . وأنعم بها من مزايا لا تكمل إلا لعدد قليل يبعثهم الله في أحقاب متطاولة ، ليقرّبهم حقاً أضيع ويهدم باطلاً أشيع ، ويرجع عباده إلى دينهم الحق ، ويمتحنهم الله بما امتحن به أنبياءه الكرام عليهم الصلاة والسلام من أذى الناس وحسدهم ، وعذابهم ، فيحملون ذلك كله بصبر كبير وصفح جميل ويهدي بسيرتهم هذه أكثر مما يهدي بعلومهم .

وإنك لتلمس خوف ابن حزم من الله واليوم الآخر ، في كل ما تقرأ له ، بلغت الحماسة لدينه من نفسه كل مبلغ ، وملكت عليه وقته وتفكيره فطرح الدنيا وجاهها وغرورها ونبذ المناصب والوزارات لينشر الدين غريباً مشرداً طريد سجون وحكام ووشايات . وهذا ما تفعله العقيدة إذا حلت قلباً كبيراً ونفساً مخلصة . وقف قليلا عند ما ختم به رسالته (طوق الحمامة) ليغمرك جانب من هذا الإيمان العظيم ، لقلب طافح بشكر الله ، قال — وقد عرض لما أصابه من النكبات وقد مر بك أول هذا القول ص ٣٠ — : « لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه ، وأعادنا إلى أفضل ما عودنا ، وإن الذي أبقى لأكثر مما أخذ ، والذي ترك أعظم

من الذي تحيّف ، ومواهبه المحيطة بنا ونعمه التي غمرتنا لا تُحدّ ولا يودى شكرها ، والكل منحه وعطاياه ، ولا حكم لنا في أنفسنا ، ونحن منه ، وإليه منقلبنا ، وكل عارية فراجعة إلى معيرها وله الحمد أولاً وآخراً وعوداً وبدءاً وأنا أقول :

إذا ما صح لي ديني وعرضي فلست لما تولى ذا اهتمام

جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين الحامدين[1] »

(١) طوق الحمامة ص ١٥٣

هـ ــ أدبــــه

أولى من هذا المكان ببيان أدب ابن حزم ، كتاب برأسه يخصص لعرض أدبه الواسع العميق وتستجلى فيه صفاء نفسه الكبيرة وخطرات فكره العجيب . ولكنا نريد أن نرسم لمترجمنا صورة قريبة من الكمال بقدر الإمكان ، فلا مناص لنــا إذن ، من الإلمام بأدبه في كلمة موجزة .

الأدباء الموهوبون قليلون ، وربما لم يكن لبعض العصور إلا أديب واحد ، بل ربما لم تظفر عصور متعاقبة بأديب ، والذين يتركون لنا مرآة واضحة عن نفوسهم ومجتمعهم وينقلوننا بسحر بيانهم وقوة روحهم إلى أعصارهم فنعايشهم ونخالطهم ونشعر بما شعروا ونحلق في الآفاق التي حلقوا ... هم صفوة هذا القليل . وأنا لا أعرف من هؤلاء في القرون الخمسة التي تلت الهجرة غير اثنين فقط : الجاحظ في المشرق وابن حزم هذا في المغرب ، على تفاوت بين الرجلين وميزات لكل منهما على الآخر .

كلا الرجلين عالم متمكن في الدين ، إمام مجتهد في مذهبه ، وكلاهما جادل وكافح ووضع الكتب والرسائل في نصرة مذهبه ومهاجمة خصومه . وكلاهما كان من الفصحاء الأبيناء الذين يمتزج كلامهم بأجزاء النفس سهولة ورقة ، وتستعذبه الآذان تقطيعاً

ورنيناً . ثم كلاهما غرف من علوم عصره ما استطاع ، فكان رجل دين وأدب واجتماع وفلسفة ومنطق وتاريخ وأخبار ونوادر . وكلاهما لقي من حسد خصومه وكيد أعدائه ما عرضه للمحن وأذى الحكام ، وأخيراً كلاهما ترك من تواليفه مكتبة عظيمة ضاع أكثرها وبقي منها النزر اليسير ، دليلاً على سعة آفاقه وعظمة ثقافته .

فأما ما يفترقان فيه فالمزاج : كان الجاحظ هادئاً ساكن الطائر على دهاء ومصانعة ، وكان ابن حزم صلباً صريحاً عنيفاً حاد المزاج ذا لسان أمضى من سيف الحجاج . ثم هناك بعد ذلك ، عالمان كبيران تنقل فيهما ابن حزم وتمتع حتى تمكن ولم نعلم للجاحظ فيهما أثراً يذكر : الأول عالم الشعر فلقد كان ابن حزم شاعراً بليغاً مرهف الحس بعيد الأثر في النفس ولم يمتع الجاحظ من الشعر في ورد ولا صدر ، والثاني عالم الحب فقد نهل منه ابن حزم وعلّ ، وشرب كأسه حتى الثمالة ، وبلا من أحواله وأعراضه وأحزانه ومفارحه شيئاً كثيراً حتى لقد تفرد في المشرق والمغرب بالإيغال فيه والغوص على أسراره . وأكاد أقول إنه فيه إمام مجتهد كما هو في الدين إمام مجتهد . ولم يكن — فيما علمنا — للجاحظ في هذا اللون من الحب نصيب .

وابن حزم على هذا لم ينزو انزواء العلماء ، بل عوضه الله

عن ربح عزلتهم وتأملاتهم نظرةً فاحصةً عميقة ، وذكاء سريعاً وقاداً ، فنزل إلى الساحات والأسواق ، وغشي المجالس والمجتمعات ، وخالط الفقهاء والعوام والصناع والنساء والعطارين والفتيان والأمراء والخلفاء ، فترك لنا معارف زاخرة عن مجتمعه لا نجدها في شيء من كتب التاريخ . والغريب أن هذا كله محشور بين دفتي رسالة مختصرة عن كتاب في موضوع الحب هي : طوق الحمامة . فما ظنك لو سلم لنا تراث ابن حزم كله ، إذن لنعمنا بحياة خصبة نحياها حالمين في فردوسنا الأندلسي .

عرّفنا ابن حزم كثيراً من أسرار الأسر النبيلة ووقائع الغرام فيها على رغم الحجاب الغليظ والرقابة الدقيقة ، وأنهم إلى التصوّن في علائقهم هذه أقرب منهم إلى التبذل ، كما أطلعنا على مجتمعات النساء بباب العطارين في قرطبة . ولقد تكفل بفضح الهوى الساحقة التي ارتطم فيها أناس نساك تنطعوا في نسكهم وتكبروا به على المستورين ، فما هي إلا جولة حتى هووا من حالق صوامعهم إلى قيعان الفساد ، كل هذا بأسلوب قصصي ساحر جذاب . والشيء الخطير حقاً هو أن ابن حزم حين يؤلف ، يستمد من تجاربه الشخصية أكثر مادته ، لقد خاض الحياة وتقلب في نعيمها وتمرغ في بأسائها وخبرها علواً وسفلاً خبرة العالم النفسي الدقيق في ملاحظاته وتقييدها . لقد انعكست في فكره وكتبه الأندلس كلها بأجناسها وعلومها وآدابها وعاداتها وسمومها

وإسفافها وترفها وفتنها وأسرارها فجلاها لنا في مرآة صافية لا تعلوها غبرة ولا صدأ .

وفق في بيان هذا كما وفق قرينه الجاحظ ، وما أظن تصوير الجاحظ للحسود ببعيدة عن ذهنك حين وصف تغير سحنته وتحول لونه وخوص عينيه[1] .. وجميع العوارض (الفسيولوجية) ، فوازنها بما سيمر بك من دراسة ابن حزم للتغيرات الطارئة على المرأة في حضرة رجل أو الرجل إذا أحس امرأة ! في نبرة الصوت وإطالة الكلام ، وتكلف الحركات ... وإن تفوّق ابن حزم في هذا على صاحبه راجع إلى أن القرن الخامس في الأندلس أبسط آفاقاً في الثقافة وألوانها من زمن الجاحظ

ولك أن تقابل بين وصف الجاحظ للحسد ووصف ابن حزم له في رسالة (فضل الأندلس) لقد أحسن الرجلان تصويراً لأن كلاً منهما يصف ما يعاني ويجد .

* * *

لم يصل إلينا من آثار ابن حزم في الأدب إلا القليل . والظاهر أن له طائفة صالحة من الشعر حتى استطاع ابن بشكوال

---

(١) أنظر ذلك في رسائل الجاحظ ص ٥ طبعة السامي .

أن يجمع له ديواناً على حروف المعجم[1] ..

وذكر هو في كتابه طوق الحمامة ص (١١٩) إتلاف صديق له جميع ما كاتبه به من نثر أو شعر . وإذا عرفنا أن المقاطيع الصغيرة الباقية في طوق الحمامة ، هي من قصائد طوال في الأصل أدركنا مبلغ الضائع من شعره ، والذي في الطوق دون الألف من الأبيات ، وأنا أقدرها كاملة بعشرة آلاف بيت في موضوع واحد هو الحب .

وله في طبقات السبكي (٢ : ١٨٤) قصيدة طويلة بلغت أبياتها ١٤٠ أجاب بها ملك الروم « نقفور » عن رسالته التي أرسلها إلى المسلمين يهدد ويتوعد . والقصيدة تزخر بالقوة والتبكيت ، والفخر والوطنية ، والاعتداد بجميع أقاليم العرب . وقد أظهر فيها اطلاعه الواسع على التاريخ والجغرافية والملاحم ، وختمها بمدح الرسول ﷺ وتقريع من يسميهم (عبدة عيسى) والهزء بمزاعمهم على أسلوبه الخاص ، فانظرها في مظنتها .

لم يتكسب ابن حزم بشعره قط ، ولم يمدح إلا نادراً وكان

---

(١) قال ابن بشكوال في الصلة : وله في الآداب الشعر نفس واسع وباع طويل وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه . وشعره كثير قد جمعناه على حروف المعجم .

مدحه لأقرانه في الجاه والعلم فهو إذن يقول الشعر إرضاء لفنه الخالص كما يقولون ، وتفريجاً لهمومه وأحزانه ، وترجماناً عن نزواته وخلجاته .

ومع اشتغاله بالعلوم الدينية وغيرها ، لم يكن شعره ليشبه في وجه من الوجوه ما يسمى (شعر الفقهاء) . وهو شاعر فحل مطبوع قبل أن يكون فقيهاً وقبل أن يكون عالماً . والأدب هبته الأصلية والعلم طارئ عليه ولم يؤثر فيه من الناحية الشعرية ، بل لا نكون إلى الغلو إذا قلنا إن ابن حزم طبع العلوم والدين والجدل والتأليف ... بالطابع الأدبي الجميل . وإنه على كل حال في الطليعة من بلغاء الأندلس شعراً ونثراً .

وعلة التفوق في جميع الموضوعات التي طرقها ابن حزم هو أنه لا يعالج إلا ما أوسعه بحثاً ودرساً وتفكيراً فيه . أما في الأدب خاصة فيرجع السبب في إجادته وسموه إلى أنه لم يصف إلا ما شاهد وكابد وشعر به ، لم يكن عالة على غيره في وصف طبيعة أو ترجمة عاطفة أو شكوى أو سرور أو حزن ... قال في مقدمة الطوق :

« وما مذهبي أن أنضي مطية سواي ولا أتحلى بحلي مستعار[1] ».

هذا هو السر في تأثير بلاغته وأخذها بمجامع القلوب ونفاذها إلى أعماق النفوس .

---

(١) ص ٣

لغة ابن حزم من السهل الرقيق الممتنع ، لا يكاد يستعمل لفظة غير مأنوسة ، وهو أبعد ما يكون عن الحوشي والتعقيد ، تقرأ له في الأدب كتاباً بكامله مثل طوق الحمامة نثراً وشعراً فلا تكاد تشعر بحاجة إلى الرجوع إلى المعاجم ، بعيد عن الصنعة المتكلفة ، غني عن اللعب بالألفاظ ، أغنته عنها تلك البحور الدافقة على ذهنه من المعاني الخصبة والعواطف الصادقة المشبوبة ، فليس إلا أن يقول . و كثيراً ما كان يقول الشعر الجيد على البديهة بسرعة لا تجارى .

وإذا لجأ إلى المجاز في بيانه ، أمتعك بأصدقه وأقربه ثم حشد فيه صوراً طافحة بالألوان الزاهية السارة . انظر إلى تصويره آخرة الحب ، وغرور المرء بأوله :

كمغتر بضحضاح قريب فزلّ فغاب في غمر المدود

تجد أنه تصوير أوضح من المحسوس ، ومجاز أصدق من الحقيقة ، مع تلخيص بليغ لتاريخ الحب من جميع نواحيه ، وما أدركت قط فهماً أعمق في بيان مزالق الحب من هذا .

ويريد أن يبين عن حال عاشق متيم متكتم لا يفصح عن حبيبه على رغم ضناه ، فيطلب له مجازاً يقر رحاله فينتزع مراده بلطف مما ترى العين وتسمع الأذن :

كخط يرى رسمه ظاهراً وإن طلبوا شرحه لم يبن
كصوت حمام على أيكة يرجّع بالصوت من كل فن
تلذ بفحواه أسماعنا ومعناه مستعجم لم يبن

وانظر تلطفه في تشبيه الهلال :

كحاجب الشيخ عم الشيب أكثره

وقوله في قوس قزح :

ولاح في الأفق قوس الله مكتسيا من كل لون كأذناب الطواويس

والبيت الأخير يعج بالألوان البراقة ، وقد أبدع فيه بما لا مزيد عليه .

والغريب أن صاحبنا يلذ أن يحاكي أحياناً أرباب الصنعة للتسلية فقط ، فيتكلف لذلك ما لو رامه أحدهم لجاء بغاية الاستكراه . وأنت تعلم أن الأقدمين ما زالوا يعجبون من تشبيه امرئ القيس شيئين بشيئين في قوله :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

ويقطعون لصاحبه بالانفراد في الإجادة حتى جاء بشار ببيته :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ثم أتى المتكلفون يقلدون فلا يبلغون ، وعنّ لابن حزم أن يجاريهم فسبقهم إذ شبه ثلاثة بثلاثة في بيت واحد :

كأن الحيا والمزن والروض عاطراً دموع وأجفان وخد مورّد

بل شبه خمسة بخمسة في بيت واحد فأتى أبعد ما يكون من التكلف وأقرب إلى الطبع وأحظى في الإجادة :

كأني وهي والكأس والخمر والدجى ثرىً وحيّا والدر والتبر والسنج[1]

وانظر نظمه قصيدة أعجازها من معلقة طرفة بن العبد (طوق الحمامة ص ٧٤) .

وفي ثنايا شعره حكم جيدة رمى بها طبعٌ موات وبصيرة نافذة ، أراد أن يبين عن أثر العادة وقوة تحكمها في الإنسان فقال :

فلو يتغذى المرء بالسم قاته وقام له منه غذاء مجرب

وتأمل قوله :

أفعال كل امرئ تنبي بعنصره والعين تغنيك عن أن تطلب الأثرا

وهل ترى قط دُفلى أنبتت عنبا أو تذخر النحل في أوكارها الصبرا

وما أسرع ابن حزم حين يلقي حكمه ، إلى الإتيان بالصورة المقررة التي لا تدع مجالاً لريب الفكر وتردده ، هو مغرم بالصور موفق في إجادتها وصدقها . وإنها لتستقر في الأذهان على الدهر لإحكامها وقربها . ولقد قال الأول :

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد

على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذي ود

فلما أتى الشاعر العالم بالنفس المجرب في الحب ، أخذ المعنى

---

(١) كذا في الأصل (طوق الحمامة ص ١٥) ولعل التحريف عن (السبج) بالباء وهو الخرز الأسود .

(خاماً) فردده في نفسه وفكره ثم أخرجه بهذه الصورة :

بلى إن في قرب الديار لراحة كما يمسك الظمآن أن يدنو الورد

والشطر الأخير آية في الروعة والسحر وكلمة (يمسك) منه محط الإعجاز ، والتشبيه هنا هو الذي يقرر المعني ويوطد له حتى يتمكن .

* * *

لنثر ابن حزم خصائص نثر الجاحظ تقريباً ، إلا أنه يتفوق عليه بميزتين اثنتين : الأولى خلوه من الاستطرادات التي قد تمل كثرتها قارئ الجاحظ ، والثانية ترتيب معانيها ترتيباً يكاد يكون منطقياً . ثم يستقل أبو عثمان بطول النفس وجمال النكتة وخفة الروح .

وإذا كان شعر ابن حزم مأنوس اللفظ قريب المتناول سلس الأسلوب ، فأحر بهذه السمات أن تكون في نثره أظهر .

وسأعرض عليك قطعة من طوق الحمامة ، لو دسستها في كتاب للجاحظ ، ما استطاع ناقد عارف مهما أوتي من دقة البصر أن يميزها مما حولها : معانٍ خصبة ، في جمل صغيرة مقطعة تقطيعاً موسيقيا ، لذيذ الجرس ، حلو النبرات ، فيها دلالة صريحة على أن اللغة طوع يد ابن حزم يدع منها ويأخذ ما شاء كيف شاء ،

تتوارد عليه مفرداتها وتراكيبها ومترادفاتها من كل جانب ، فيعقد منها الفقر المزدوجة التي تسحر اللب وتطرب السمع ، قال :

« وإن فيما يبدو إلينا من تعادي المتواصلين في غير ذات الله تعالى بعد الألفة ، وتدابرهم بعد الوصال ، وتقاطعهم بعد المودة ، وتباغضهم بعد المحبة ، واستحكام الضغائن ، وتأكد السخائم في صدورهم ... لكاشفاً ناهياً لو صادف عقولاً سليمة وآراء نافذة وعزائم صحيحة ... ولقد رأيت امرأة كانت مودتها في غير ذات الله عز وجل ، فعهدتها أصفى من الماء ، وألطف من الهواء ، وأثبت من الجبال ، وأقوى من الحديد ، وأشد امتزاجاً من اللون في الملوّن ، وأنفذ استحكاماً من الأعراض في الأجسام ، وأضوأ من الشمس ، وأصح من العيان ، وأثقب من النجم ، وأصدق من كدْر القطا ، وأعجب من الدهر ، وأحسن من البر ، وأجمل من وجه أبي عامر ، وألذ من العافية ، وأحلى من المنى ، وأدنى من النفس وأقرب من النسب ، وأرسخ من النقش في الحجر » فهل يخطر على بالك شيء بعد هذا الاستيفاء الذي جمع فيه ابن حزم كل المحاسن والأطايب ليخبر عن شمائل تلك المرأة ؟ وهل رأيت فناً كفنه وعذوبة كعذوبة جمله لفظاً ومعنىً وطيب موقع ؟ لقد أتى بها في جمل قصيرة ملحنة ، تدل على سعة محفوظه وحضور ذهنه

وإحاطته بلغته وتمكنه من معانيه ، فانظر بعد ذلك كيف انقلبت مودة المرأة إلى أضداد تلك الصفات ، وزد إن كنت مستطيعاً على ما ذكر ابن حزم فقرة واحدة ، إنه جمع لنا مساوئ الدنيا وسرائرها في هذه النغمات :

« ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة : أفظع من الموت ، وأنفذ من السم ، وأمر من السقم ، وأوحش من زوال النعم ، وأقبح من حلول النقم ، وأمضى من عقم الرياح ، وأضر من الحمق ، وأدهى من غلبة العدو ، وأشد من الأسر ، وأقسى من الصخر ، وأبغض من كشف الأستار ، وأنأى من الجوزاء ، وأصعب من معاناة السماء ، وأكبر من رؤية المصائب ، وأشنع من خرق العادات ، وأقطع من فجأة البلاء ، وأبشع من السم الذعاف ، ومالا يتولد مثله عن الذحول والترات ، وقتل الآباء وسبي الأمهات[1] .. »

هذا ولا يفوتنك لطف مذهبه في إدخال ألفاظ فنه المجردة في هذه القطعة الأدبية ، فإن (امتزاج اللون باللون ، واستحكام الأعراض في الأجسام ، والعيان ..) وما شابهها من ألفاظ المشتغلين بالمنطق والفلسفة والكلام ... مما لا تهضمه صفحات الأدب ، إلا

---

(١) طوق الحمامة ص ١٣٢

إذا أتيح لها صوّاغ موهوب مفن كابن حزم .

وقد ذكرت لك في بحث حبه القصة الشائعة التي رسمها هو نفسه بريشته ، ولا شك أنك ستولي انتباهاً خاصاً للعبه بالنفوس بمثل هذه الجمل الرائعة « .. فلقد أثارت وجداً دفيناً وحركت ساكناً ، وذكرتني عهداً قديماً ، وحباً تليداً ، ودهراً ماضياً ، وزمناً عافياً ، وشهوراً خوالي ، وأخباراً بوالي ، ودهوراً فواني ؛ وأياماً قد ذهبت ، وآثاراً قد دثرت ... ، زاد الشجى ، وتوقدت اللوعة ، وتأكد الحزن ، وتضاعف الأسف ... ، وقد تغير أكثر محاسنها ، وذهبت نضارتها ، وفنيت تلك البهجة ، وغاض ذلك الماء الذي كان يرى كالسيف الصقيل ، والمرآة الهندية ... الخ » لقد افتن كل الافتنان، واحتال ألطف الاحتيال حتى أضفى على معانيه هذه الحلل البراقة ، والنور اللألاء ، ومكّن للمعنى من أطرافه وحواشيه حتى يقر في الصدر ويفوز من النفس بأبلغ الأثر . وهذه ميزة ابن حزم على المتكلفين في التزام السجع وحشر المترادف .

إنه إذا قصد إلى معنى طريف لم يهجم بك عليه بادئ الرأي ، ولكنه يأخذ بيدك في طريق ملتف فلا يزال بك كالنحلة من زهرة إلى زهرة ومن ثمرة إلى ثمرة ومن روضة إلى ينبوع ،

حتى تطمئن وتظن كلما وقفت على روعة من الروائع أنهـا هي المقصودة بالذات المعهد لها بما سبق ، فما أسرع ما يخلف ظنك حين يقفك موقفاً أحلى من الأول ولا ينفك بك في لف ودوران لذيذين ... هكذا حتى يستقر بك على غرضه فإذا بك في سدة عدن ، وإذا كل ماسبق تمهيدات يغري بعضها ببعض ، خذ هذا المثال :

« ولقد جربت اللذات على تصرفها ، وأدركت الحظوظ على اختلافها . فما للدنوّ من السلطان ، ولا المال المستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ، ولا الأوبة بعـد طول الغيبة ، ولا الأمن بعد الخوف ، ولا الترويح على المال ... من الموقع في النفس مما لو صل؛ ولا سيما بعد طول الامتناع وحلول الهجر ... وما أصناف النبات بعد غب القطر ، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب السواريات في الزمان السجسج ، ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النوّر ، ولا تأنق القصور البيض قد أحدقت بها الرياض الخضر ... بأحسن من وصل حبيب[1] ... » أو هذا المثال[2] :

« ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه . ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء ، وتحكم الوزراء ، وانبساط مدبري الدول ، فما رأيت

---

(١) طوق الحمامة ص ٥٦ (٢) ص ٦٧

أشد تبجحاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده ... وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين ، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان . »

وماذا أختار لابن حزم ؟ فيكفيك ما في الفصول السابقة واللاحقة وخاصة حديثه عن حبه وعن نكباته ، ففيه أصدق صورة عن فنه . ولقد قص قصة عن قاض وقور عشق عشقاً عنيفاً بقيت حسرته تزداد حتى أوردته حتفه ، ثم يذيلها بشمائل هذا القاضي تذييلا يذكرنا بصفة الجاحظ لقاضي البصرة سوار . قال ابن حزم : « هذا ، على أن أبا عبد الله (يعني القاضي) أكرم الله نزله ، ممن لم يكن له ولهٌ قط ، ولا فارق الطريقة المثلى ، ولا وطئ حراماً قط ، ولا قارف مسكراً ، ولا أتى منهياً عنه يخل بدينه ومروءته ، ولا قارض من جفا عليه ، وما كان في طبقتنا مثله[1] » .

* * *

لست أستطيع الإفاضة في عرض ألوان ابن حزم الأديب ، وكل ما فعلته وثبات سريعة تعطي عن الرجل فكرة فقط . غير أنه لا مندوحة لي — والرسالة التي أنشرها في الدين — أن أعرض لأثر ثقافته في أدبه ، فلا يجمل بي طيها وابن حزم ذلكم العالم الديني المجتهد الإمام .

---

(١) طوق الحمامة ص ١٦٨

اشتغال المرء بصناعة ما ، يجعل ألفاظ أدواتها وأفعالها وأشيائها كثيرة الدوران على لسانه ، بحكم دؤوبه وممارسته لها ، والمرء أكثر ذكراً لما يعانيه ويكد خاطره . وهذه ظاهرة نجدها بارزة في كثير من الأدباء فتندس مفردات الحرفة التي تزاولها أسرهم في آثارهم من حيث لا يشعرون . وفي أدبنا العربي طوائف من هذا النمط ، فبعض الشعراء دارت في أشعارهم كلمات ومصطلحات تتعلق بالدين أو المنطق أو النحو أو الفلسفة أو غيرها ، والمتنبي استعمل ألفاظ الفلاسفة والحكماء حتى أغرب في ذلك وسمجت أبياته الحاملة لهذه الألفاظ . ولأمر ما سموا بعض الأشعار أسماء خاصة فقالوا : شعر الفقهاء وشعر الكتاب وشعر النحاة ، يريدون بذلك إبعاد هذه الألوان عن ساحة الشعر . إلا ابن حزم فإنه على رغم ما حمل شعره من ثقافته الدينية والنحوية والتاريخية ، بقي خالصاً من الشوائب للتوفيق الذي وهب له في (تأديب) العلم إن صح هذا التعبير . لا يشعر قارئه وهو يقرأ في شعره أموراً هي من أدب الدين أو من النحو أو التاريخ ، أنه فوجئ بما يبعده عن جوه العلوي الساحر . وسترى أنه — لقوة طبعه وجبروت ذهنه — وفق في هذه الناحية من حيث أخفق المتنبي وإليك الأمثلة ، قال :

على كل من حولي رقيبان رتبا وقد خصني ذو العرش منهم بثالث

يعني بهما الملكين اللذين يحصيان حسنات المرء وسيئاته . وقال

كأنما هو توحيد تضيق به ... نفس الكفور فتأبى حين تودعه

وقال :

وخذني عصا موسى وهات جميعهم ... ولو أنهم حيات بيض نضانض

وقال :

يرجّون مالا يبلغون كمثل ما ... يرجّي محالاً في الإمام الروافض

وقال :

كأن زماني عبشمي يخالني ... أعنت على عثمان أهل التشيع

يشير إلى بغض الأمويين للذين أعانوا على قتل الخليفة عثمان ابن عفان ، وتعقبهم لهم بالقتل . وقال :

كذب المدعي هوى اثنين حتماً ... مثل ما في الأصول : أكذب ما في

فكما العقل واحد ليس يدري ... خالقاً غير واحد رحمان

فكذا القلب واحد ليس يقوى ... غير فرد مباعد أو مدان

هو في شرعة المودة ذو شـ ... ـك بعيد عن صحة الإيمان

وكذا الدين واحد مستقيم ... وكفور من عنده دينان

وقال :

كذلك يعقوب نبي الهدى ... إذ شفه الحزن على يوسف

شم قميصاً جاء من عنده ... وكان مكفوفا فمنه شفي

وقال :

كذلك فعل السامري وقد بدا ... لعينيه من جبريل إثر ممجد

فصير جوف العجل من ذلك الثرى ... فقام له منه خوار ممدد

وقال مشيراً إلى قضية نحوية :

أبت عن دنيء الوصف ضربة لازم كما أبت الفعل الحروف الخوافض الخ

فالتوحيد والكفر والإيمان وأهل التشيع والروافض والثانوية ... قضايا تتعلق باختصاصه الديني ، كما أن عصا موسى مع الحيات ، والنبي يعقوب وقميص يوسف ، والسامري الذي قبض قبضة من أثر جبريل فقذفها في فم العجل فخار ، كلها قصص وردت في القرآن الكريم . وقتل عثمان وما نشأ حوله من شيعة وأمويين يناصب الفريق منهم الفريق الآخر العداء ، وشخصية ماني والثانوية ... أمور معروفة استمدها من ثقافته التاريخية الواسعة . والفعل والحروف الخوافض قضية معروفة في النحو . وستأتيك عند الكلام على حبه ، مقطوعة شعرية له ذهب بها إلى حل الهوى العفيف وأصمى بها المتنطعين بضربة قاطعة ، إنها اتخذت شكل فتوى شرعية مؤيدة بالحجج ومناهضة للخصوم بجدل قوي محكم ، وهي بعد هذا وهذا من الشعر الرائق الجميل .

وأختم هذا الفصل بوصف نزهة حضرها ، تضيفها إلى ما اطلعت عليه — مع قلته — من نعته للجمال في الطبيعة والناس ، وقد اخترتها لأنها جمعت نثراً وشعراً في موضوع واحد قال :

« تنزهت أنا وجماعة من إخواني من أهل الأدب والشرف

إلى بستان لرجل من أصحابنا . فجلنا ساعة ثم أفضى بنا القعود إلى مكان دونه يُتمنى ، فتمددنا في رياض أريضة[1] ، وأرض عريضة ، للبصر فيها منفسح وللنفس لديها منسرح ، بين جداول تطرد كأباريق اللجين ، وأطيار تغرد بألحان تزري بما أبدعه معبد وابن الغريض ، وثمار مهدلة قد ذللت للأيدي وذللت للمتناول ، وظلال مظلة ، تلاحظنا الشمس من بينها فنتصور بين أيدينا كرقاع الشطرنج والثياب المدبجة ، وماء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة ، وأنهار متدفقة تنساب كبطون الحيات ، لها خرير يقوم ويهدأ ، ونواوير مونقة مختلفة الألوان ، تصفقها الرياح الطيبة النسيم ، وهواء سجسج[2] ، وأخلاق جلاس تفوق كل هذا ؛ في يوم ربيعي ذي شمس ذليلة ، تارة يغطيها الغيم الرقيق والمزن اللطيف ، وتارة تنجلي فهي كالعذراء الخضرة والخريدة الخجلة ، تتراءى لعاشقها من بين الأستار ، ثم تغيب فيها حذر عين مراقبة . وكان بعضنا مطرقاً كأنه بحالة أخرى ، وذلك لسر كان له ، فعرّض لي بذلك وتداعبنا حيناً ، فكلفت أن أقول على لسانه شيئاً في ذلك ، فقلت بديهة ، وما كتبوها إلا من تذكرها بعد انصرافنا وهي :

---

(١) معجبة للعين . (٢) معتدل لا حر ولا قر .

ولما تروحنا بأكناف روضة مهدلة الأفنان في تربها الندي
وقد ضحكت أنوارها وتضوعت أساورها ؟ في ظل فيء ممدد
وأبدت لنا الأطيار حسن صريفها فمن بين شاك شجوه ومغرد
وللماء فيما بيننا متصرف وللعين مرتاد هناك وللبد
وما شئت من أخلاق أروع ماجد كريم السجايا للفخار مشيد
تنفص عندي كل ما قد وصفته ولم يهنني إذ غاب عني سيدي
فياليتني في السجن وهو معانقي وأنتم معاً في قصر دار المجدد
فمن رام منا أن يبدل حاله بحال أخيه أو بملك مخلد
فلا عاش إلا في شقاء ونكبة ولا زال في بؤس وخزي مردد

فقال هو ومن حضر : آمين آمين[1] » .

هذا وقد مر بك من شعر ابن حزم في موضعه ، طائفة إلا تكن وافية فإنها مفصحة بعض الإفصاح عن طبعه في الشعر ورقة عاطفته وعذوبة لفظه وحلاوة مدخله . ولا بأس في أن أزيدك إلى ما تقدم ، حفنة جد قليلة مع تنبيهك إلى أن كتابه (طوق الحمامة) على صغر حجمه يصلح أن يكون له ديوان شعر ونثر .

فمن قوله يصف دهره وما لقي فيه :

هل الدهر إلا ماعرفنا وأدركنا فجائعه تبقى ولذاته تفنى

---

(١) طوق الحمامة ص ٩٧ — ٩٨

إذا أمكنت فيه مسرة ساعة تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعات في المعاد وموقف نود لديه أننا لم نكن كنا
حصلنا على هم وإثم وحسرة وفات الذي كنا نلذ به عينا
حنين لما ولى وشغل بما أتى وغم لما يرجى فعيشك لا يهنا
كأن الذي كنا نسر بكونه إذا حققته النفس لفظ بلا معنى (١)

وقال يشكو ما لقي من أهل بلده من الضياع :

ولي نحو أكناف العراق صبابة ولا غرو أن يستوحش العاشق الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب
هنالك تدري أن للعبد قصة وأن كساد العلم آفته القرب (٢)

ومن لطيف دعابته قوله :

وذي عذل فيمن سباني حسنه يطيل ملامي في الهوى ويقول :
أمن أجل وجه لاح لم تر غيره ولم تدر كيف الجسم : أنت عليل ؟؟
فقلت له : أسرفت في اللوم فاتئد فعندي رد لو أشاء طويل :
ألم تر أني ظاهري وأنني على ما أرى حتى يقوم دليل (٣)

فلم يشأ ابن حزم أن يدع (ظاهريته) حتى في الحب والجمال .

ومن قوله في الشوق لأحبابه :

---

(١) معجم الأدباء والصلة لابن بشكوال ص ٤٠٨ .
(٢) معجم الأدباء .
(٣) المصدر السابق ونفح الطيب .

لئن أصبحت مرتحلا بجسمي فقلبي عندكم أبداً مقيم
ولكن للعيان لطيف معنى له سأل المعاينة الكليم (١)

وقصد يوماً أبا عامر بن شهيد في يوم غزير المطر والوحل، شديد الريح، فلقيه أبو عامر وأعظم قصده وقال له: «يا سيدي مثلك يقصدني في مثل هذا اليوم ؟ !!» فأنشده ابن حزم بديهاً:

فلو كانت الدنيا دُوَيْنك لجة وفي الجو صعق دائم وحريق
لسهّل ودي فيك نحوك مسلكاً ولم يتعذر لي إليك طريق (٢)

وقال في الفراق:

أقمنا ساعة ثم ارتحلنا ومايغني المشوق وقوف ساعه
كأن الشمل لم يك ذا اجتماع إذا ما شتت البين اجتماعه (٣)

ومن قوله في الحكم ما أرسله يعتذر عن تخلف حظه:

لا تلمني لأن سبقة حظ فات إدراكها ذوي الألباب
يسبق الكلب وثبة الليث في العد و ويعلو النخال فوق اللباب (٤)

إلى غير ذلك من الأشعار التي كانت بحق كما نعتها في مقطوعته التي قرّع فيها ابن عمه:

وأبعث في أهل الزمان شوارداً تلينهم وهي الصعاب النوافر

ومن قوله يفتخر بعلمه وعصاميته ويذكر جاهه الذي صدف عنه:

---

(١) نفح الطيب.
(٢) المصدر السابق ١ : ٤٢٨ فما بعد.
(٣) ابن خلكان. (٤) نفح الطيب.

بلغت من الدنيا ذرى أربي ... في لذة العيش والسلطان والنشب
فأذهبت دول الأيام منزلتي ... وزاد فقدي للذات في كربي
وكان مالي لهذا كله تبعاً ... بل صار عوناً لأعدائي على طلبي
لكن رجعت وقد جلد الزمان إلى ... كنز من العلم والأخلاق والأدب
فأعجز الدهر أن يودي بواحدة ... منها وأقصر عني واهي السبب
لا أختشي نضع الأيام منزلتي ... مدى الزمان وعندي أغلب الطلب
لا يستطيعون عزلي عن ولايتها ... إذ كل وال لهم بالعزل في العقب
هذا بلا كلفة مني ولا حرس ... ولا عديد ولا إنفاق مكتسب
وكل من كان في دنياي يصحبني ... ناديته حين خانتني فلم يجب
كلام من جرّب الأمرين وانضحت ... له المذاهب من جد ومن لعب
أنا ابن من دبر الدنيا بخاتمه ... عشرين عاماً وعشر بعد لم يرب
وإن منزلتي في العلم منزلة ... في الملك حظ كحظ الصادق النسب
ما زلت أذخره دهري وأنفقه ... (دأباً) كمثل اللجين المحض والذهب
وإنني لبخيل بالسلام إذا ... بخلت بالعلم من لفظي ومن كتبي
لو استطعت منحت الناس كلهم ... ما قد تجمع في حفظي وفي كتبي
أأبذل المال يفني البذل حاصله ... ولست أبذل ما ينمي على النهب
سائل بأي علوم العالمين تجد ... عندي ينابيع ذاك العلم من كتبي [1]

* * *

(١) مجلة المقتبس : المجلد الاول .

هذا ما أمكنت منه خطتي في الترجمة ، وما واتت عليه الفرصة ، وليس أدب ابن حزم بالذي تستوفى إحدى نواحيه في هذه الصفحات ، لأنه — وخاصة في رسالة طوق الحمامة — : أديب عالمي سبق عصره قروناً ، وإني لأرجو أن أتيح لنفسي فرصة أخرى فأتكلم على أدبه خاصة إذا يسر الله لي جمع ما تفرق من شعره ونثره .

و ــ حبــــه

شاء الله لابن حزم أن يكمل من حيث نقص كثيرون فهيأ كل شيء لهذه النفس السامية حتى خفقت بالحب النبيل العف الطهور، ذلك الحب الذي نعمت به قلوب الصفوة من العباد الصالحين .

والأندلس لعهد ابن حزم مرتع الجمال العجيب : في طبيعته وفي أهله رجالاً ونساء، عجت بالحور من مختلف الأجناس، من آسية وإفريقية وأوروبة فتوالد من تمازج الأعراق جيل جديد تم للأندلس به جمال خاص أثر في رجالها فلطّف طباعهم وطبع أدب الأندلس بهذا الطابع الرقيق الجذاب الذي تفردت به .

وابن حزم منذ نعومة أظفاره، صافي النفس رقيق الشمائل مرهف الحس، مشبوب العاطفة . يزين ذلك كله تهذيب (أرستقراطي) متوارث، وعقل واسع وعزيمة ضابطة مع خوف من الله عز وجل .

والذي عجل تفتح قلبه، إشراف أرقى الأندلسيات على تربيته، وإحاطته إلى زمن استتمام رجولته بسيدات هن أرقى نساء مجتمعه . فصبا وخفق بالحب قلبه ثم تمكن واشتد، ونفّس عنه بمقاطيع من الشعر تفيض رقة وحرقة . وليس لأحد أن يستغرب من إمام كابن حزم أن يملكه الجمال، ويأسر لبه، فما كان رجال الشريعة يوماً

من الدهر غُلْف القلوب ولا عُمي العيون ولا متبلدي الحس ، بل إن ثقافتهم بطبيعتها لتهديهم إلى معجزات الله في الجمال ، وتحدوهم على تقديرها والتمتع بنعمها وشكر المبدع في صنعها .

وإن من أعرض عن نداء عواطفه التي أودع الله في قلبه ، وتهاون بنظام بنى الله عليه الكون منذ بدء الخليقة ، لكائن لم تكمل آدميته ، رجلاً كان أو امرأة . والله الذي ميز الانسان بالتفكير السامي هو الذي غرس في قلوب كل جنس نوازع نحو الجنس الآخر ، وجعل بينهما مودة ورحمة لتتم حكمته في عمران الدنيا والعازفون عن سنة الله في بريته معطلون ناقصون ، وما جعل الله يوماً من القربات إليه تعطيل نظام أحكمه بيديه

ولقد بهرج ابن حزم — رحمه الله — هذا الضرب من الورع الكاذب ، وزيفه أشد تزييف فقال :

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى
وسيان عندي فيك لاح وساكتُ

يقولون : جانبت التصاون جملة
وأنت عليهم بالشريعة قانت

فقلت لهم هذا الرياء بعينه
صراحا وزي للمرائين ماقت

متى جاء تحريم الهوى عن محمد
وهل منعه في محكم الذكر ثابت

إذا لم أواقع محرماً أتقي به
مجيئي يوم البعث والوجه باهت

فلست أُبالي في الهوى قول لائم سواء لعمري جاهر أو مخافت
وهل يلزم الإنسان إلا اختياره وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت (١)

إذاً لقد أحب ابن حزم ولا مناص ، والحب السامي اضطراري لا اختياري ، يبعثه الجمال في القلب الكامل والنفس الزكية والطبيعة الشاعرة . وكان من نعمة الله على المكتبة العربية ، أن يسلم لها مختصر لكتاب (طوق الحمامة) ، الكتاب الذي قصره مؤلفه على الحب ودواعيه وحالاته وآثاره وعوارضه ويعنينا منه بوجه خاص أمران لا تتم لنا صورة صادقة عن حياة ابن حزم ، حتى نعرض لها : أما الأول فأخبار حبه وآثاره في نفسه ، وأما الثاني فهو اختباراته في هذا الميدان ودراسته العميقة لمجتمعه في الحب ، ثم دقة وتحليل وفق إليهما في دراسته النفسية العميقة . ونحن فيما نسوق إليك عيال على هذا المصدر الوحيد ، ولولاه ما استطعنا أن نعرف شيئاً عن حياته الشعرية هذه ، ولبقيت سراً مجهولاً ، ولم ننعم إلا بصورة شوهاء عن حياته .

أطلعنا ابن حزم على حوادث ثلاث في تاريخ قلبه ، وكلها أصابه في صباه وحداثة سنه ، وكلها كان له الأثر البليغ في حزن نفسه وإثارة عواطفه وفجيعة شبابه .

---

(١) طوق الحمامة ص ٣٣ .

فأما الأولى فتبين لنا أثر الحب الأول إذا صادف قلباً خاليا ، كيف يتمكن حتى لا يولع المحب إلا بما شابه صفة محبوبه الأول قال :

« وعني أخبرك : أني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر ، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو أنه على الشمس أو على الحسن نفسه . وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت ، لا تواتيني نفسي على سواه ، ولا تحب غيره البتة . وهذا العارض بعينه عرض لأبي رضي الله عنه وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجله » .

ثم ذكر ملاحظته الخاصة بخلفاء بني مروان وكيف تتابعوا جميعا على محبة الشقراء من النساء حتى أتى أغلبهم أشقر أشهل نزاعاً إلى أمهاتهم . فأيد بذلك نظريته في ابتغاء الانسان الصفة التي عليها محبوبه الأول . وهذا هو أسلوبه في أكثر الكتاب يشرح العارض ويصف أحواله ثم يؤيده بالشواهد التي عانى أو عاين أو سمع .

وأما الثانية ففاجعة بحبيب حل من قلبه أسمى محل ، فغبر ابن حزم بعدها لا يطيب له عيش ولا يجد عنها سلوى ، وقد أثرت في نفسه أبلغ الأثر حتى ما كاد ينتفع بنفسه بعد ، وحتى فاضت قريحته بمقطوعة من أصدق الشعر العاطفي ذكر منها مع الأسف

أبياتاً متفرقة، نثره في سرد في الحادث أشهر منهن وأبلغ، قال في باب البين :

« وعني أخبرك : أني أحد من دهي بهذه الفادحة، وتعجلت له هذه المصيبة . وذلك أني كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لي كانت فيما خلا، اسمها (نُعْم) وكانت أمنية المتمني وغاية الحسن خَلْقاً وخُلُقاً وموافقة لي، وكنت أبا عذرها . وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتني بها الأقدار واخترمتها الليالي ومر النهار وصارت ثالثة التراب والأحجار، وسني حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هي دوني في السن

فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني وقلة إسعادها، وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن (أي بعد خمس عشرة سنة) ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف، وببعض أعضاء جسمي العزيزة عليّ مساراً عاطائها . وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها، ولقد عفّى حبي لها على كل ما قبله وحرم ما كان بعده، ومما قلت فيها :

مهذبة بيضاء كالشمس إن بدت ... وسائر أرباب الحجال نجوم

---

(١) طوق الحمامة ص : ٢٥ .

أطار هواها القلب عن مستقره فبعد وقوع ظل وهو يحوم

ومن مراثيّ فيها قصيدة منها :

كأني لم آنس بألفاظك التي على عقد الألباب هن نوافث
ولم أتحكم في الأماني كأنني لإفراط ما حكمت فيهن عابث

وفيها :

ويبدين إعراضاً وهن أوالف ويقسمن في هجري وهن حوانث[1]

والحقيقة أن هيام ابن حزم بنُعم بلغ الغاية في الشدة ، حتى أنه بعد موتها لم يكن ليسلوها في يقظة ولا منام ، والمرء يرى في أحلامه ما تهتف به نفسه الباطنة : لقد رآها مرة في نومه فسر بها كل السرور ، وخلد لنا بشر نفسه في هذه الأبيات الصادقة القوية ، دليلاً على المحل الذي حلته من قلبه ، محل لم ينزله غيرها أحد قط :

أتى طيف نعم مضجعي بعد هدأة وليل سلطان وظل ممدد
وعهدي بها تحت التراب مقيمة وجاءت كما قد كنت من قبل أعهد
فعدنا كما كنا وعاد زماننا كما قد عهدنا قبل والعود أحمد[2]

وأما الثالثة فقصة حب لم يستجب له ، بقي شديداً متسعراً

---

(١) ص ٨٨ .

(٢) ص ٩٥ .

سنين طويلة ثم برد فجأة حين رأى محبوبته بعد غياب ، وقد غاض جمالها لعدم تعهده . والقصة على طولها طريفة جداً لأنها تشرح بإسهاب لذيذ مطاردة ابن حزم للجارية ، وتمنعها . ثم هي إلى ذلك تصف لنا مجتمع ابن حزم وصفاً دقيقاً لا نجد تفصيله في مكان آخر ، وحسبنا أن الذي يقوم ببيان هذا كله هو ابن حزم نفسه ، ولا تنس أن ذلك كان منه أيام الصبا قبل تفرغه لطلب الفقه ، قال :

« وإني لأخبرك عني أني ألفت في أيام صباي إلفة المحبة ، جارية نشأت في دارنا وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً ، وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها ، عديمة الهزل ، منيعة البذل ، بديعة البشر ، مسبلة الستر ، فقيدة الذام ، قليلة الكلام ، مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ، نقية من العيوب ، دائمة القطوب ، حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة القعود ، كثيرة الوقار ، مستلذة النفار ، لا توجه الأراجي نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرّس للأمل لديها ، فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طارد من أمها ، تزدان في المنع والبخل ، مالا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجد في أمرها ، غير راغبة في اللهو ، على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً ، فجنحتُ إليها وأحببتها حباً مفرطاً شديداً ، فسعيت

عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلمة وأسمع من فمها لفظة — غير ما يقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع — بأبلغ السعي فما وصلت من ذلك إلى شيء البتة .

فلمهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء تجمعت فيه دخلتنا [1] ودخلة أخي رحمه الله من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا ممن يخف موضعه ويلطف محله ، فلبثن صدراً من النهار ثم تنقلن إلى قصبة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة ، وخوصها [2] مفتحة الأبواب ، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن . فإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنساً بقربها ، متعرضاً للدنو منها ، فما هو إلا أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة ، فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره ، وكانت قد علمت كلفي بها ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه ، لأنهن كن عدداً كثيراً ، وإذ كانهن يتنقلن من باب إلى باب لسبب الاطلاع من بعض الأبواب

---

(١) الدخلة مثلثة الدال : البطانة .

(٢) الخوص : جمع خص وهو كل موضع يسكن .

على جهات لا يطلع من غيرها عليها . واعلم أن قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج[1] في الآثار ، ثم نزلن إلى البستان فرغب عجائزنا وكرائمنا إلى سيدتها في سماع غنائها ، فأمرتها فأخذت العود وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمثله ، وإن الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنه ، ثم اندفعت تغني بأبيات العباس بن الأحنف حيث يقول :

إني طربت إلى شمس إذا غربت ... كانت مغاربها جوف المقاصير

شمس ممثلة في خلق جارية ... كأن أعطافها طي الطوامير[2]

ليست من الإنس إلا في مناسبة ... ولا من الجن إلا في التصاوير

فالوجه جوهرة والجسم عبهرة[2] ... والريح عنبرة والكل من نور

كأنها حين تخطو في مجاسدها[2] ... تخطو على البيض أو حد القوارير

فلعمري لكأن المضراب إنما يقع على قلبي ، وما نسيت ذلك اليوم ولا أنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها وفي ذلك أقول :

---

(١) القيافة معرفة آثار الناس ، ومدلج قبيلة اشتهرت بحذقها في القيافة بين العرب .

(٢) الطوامير : الصحف . والعبهرة الممتلئة الجسم الناعمة الطويلة والمجسد (كمبرد) : ثوب يلي الجسد « قاموس » .

لا تلمها على النفار ومنع الوصـ ... ـل بل[1] ماذا لهـا بنكير
هل يكون الهلال غير بعيد ... أو يكون الغزال غير النفور

وأقول :

منعتِ جمال وجهكِ مقلتيّا ... ولفظكِ قد ضننت به عليّا
أراك نذرت للرحمن صوما ... فلست تكلمين اليوم حيا
وقد غنيت للعباس شعراً ... هنيئاً ذا لعباس هنيا
فلو يلقاك عباس لأضحى ... لفوز[2] قالياً وبكم شجيا

ثم انتقل أبي رحمه الله من دورنا المحدث[3] بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة ، إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة وانتقلت أنا بانتقاله وذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ، ولم تنتقل هي بانتقالنا لأمور أوجبت ذلك . ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد ، بالنكبات وباعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار ، وأرزمت [اشتدت] الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله ونحن في هذه

---

(١) في الأصل : كم . وما : نافية .
(٢) فوز : معشوقة العباس بن الأحنف .
(٣) لعل الصواب : المحدثة .

الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنتين وأربعمائة .

واتصلت بنا تلك الحال بعده إلى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا فرأيتها - وقد ارتفعت الواعية[1] - قائمة في المأتم وسط النساء في جملة البواكي والنوادب : فلقد أثارت وجداً دفيناً ، وحركت ساكناً وذكرتني عهداً قديماً ، وحباً تليداً ، ودهراً ماضياً ، وزمناً عافياً ، وشهوراً خوالي ، وأخباراً بوالي ، ودهوراً فواني ، وأياماً قد ذهبت ، وآثاراً قد دثرت ، وجددت أحزاني ، وهيجت بلابلي . على أني كنت في ذلك النهار مرزأً مصاباً من وجوه وما كنت نسيت ، ولكن زاد الشجى وتوقدت اللوعة ، وتأكد الحزن ، وتضاعف الأسف ، واستجلب الوجد ما كان منه كامناً فلباه مجيباً فقلت قطعة منها :

يبكي لميْت مات وهو مكرم ... وللحي أولى بالدموع الذوارف
فيا عجباً من آسف لامرئٍ ثوى ... وما هو للمقتول ظلماً بآسف

ثم ضرب الدهر ضربانه ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر ، فخرجت عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمائة .

---

(١) الضمير يعود إلى الجارية صاحبة القصة ، والواعية : الصراخ والصوت .

وغابت عن بصري بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر ، ثم دخلت قرطبة في شوال سنة تسع وأربعمائة فنزلت على بعض نسائنا فرأيتها هنالك، وما كدت أن أميزها حتى قيل لي : « هذه فلانة » وقد تغير أكثر محاسنها وذهبت نضارتها وفنيت تلك البهجة ، وغاض ذلك الماء الذي كان يرى كالسيف الصقيل والمرآة الهندية، وذبل ذلك النوار[1] الذي كان البصر يقصد نحوه متبوراً[2] ويرتاد فيه متخيراً ، وينصرف عنه متحيراً ، فلم يبق إلا البعض المنبئ عن الكل ، والخبر المخبر عن الجميع ، وذلك لقلة اهتبالها بنفسها ، وعدمها الصيانة التي كانت غذيت بها أيام دولتنا وامتداد ظلنا ، ولتبذلها في الخروج فيما لا بد لها منه مما كانت تصان وترفع عنه قبل ذلك وإنما النساء رياحين : متى لم تتعاهد نقصت ، وبنية : متى لم يهتبل بها استهدمت . ولذلك قال من قال : « إن حسن الرجال أصدق صدقاً وأثبت أصلاً وأعتق جودة لصبره على ما لو لقي بعضه وجوه النساء لتغيرت أشد التغير : مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكن .» وإني لو نلت منها أقل وصل ،

---

(١) النوار : كرمان الزهر .

(٢) علق مصحح الطبعة ما يلي : كذا في الأصل ولعل الصواب مبتاراً أي مختبراً .

وأنست لي بعض الأنس، لخولطت طرباً ، أو لمتّ فرحاً ، ولكن هذا النفار الذي صبرني وأسلاني ، وهذا الوجه من أسباب السلو ، صاحبه في كلا الوجهين معذور وغير ملوم إذ لم يقع تثبت يوجب الوفاء ، ولا عهد يقتضي المحافظة ، ولا سلف ذمام ، ولا فرط تصادق يلام على تضييعه ونسيانه .

* * *

وانظر الآن إلى الإرادة القوية والعفة الأصيلة كيف تغلبتا على ابن حزم ، حين استحكم واستوى ، في موقف لايسلم فيه إلا القليل ، لقد جاز امتحاناً بغاية النجاح ، وقهر هواه وملك لبه وكان على حد قول الرافعي رحمه الله :

قلبي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

قال : « ولقد ضمني المبيت ليلة في بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارفي ، مشهورة بالصلاح والخير والحزم ومعها جارية من بعض قراباتها من اللاتي قد ضمها معي النشأة في الصبى ثم غبت عنها أعواماً كثيرة ، وكنت تركتها حين أعصرت ، ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب ، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت ، وطلعت في سماء وجهها نجوم

الحسن فأشرقت وتوقدت ، وانبعثت في خديها أزاهير الجمال فتمت واعتمت وأتت كما أقول :

خريدة صاغها الرحمن من نور جلّت ملاحتها عن كل تقدير
لو جاءني عملي في حسن صورتها يوم الحساب ويوم النفخ في الصور
لكنت أحظى عباد الله كلهم بالجنتين وقرب الخرّد الحور

وكانت من أهل بيت صباحة ، وقد ظهرت منها صورة تعجز الوصاف ، وقد طبق وصف شبابها قرطبة ، فبت عندها ثلاث ليال متوالية ولم تحجب عني على جاري العادة في التربية . فلعمري لقد كاد قلبي أن يصبو ويثوب إليه مرفوض الهوى ، ويعاوده منسي الغزل ، ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفاً على لبي أن يزدهيه الاستحسان ، ولقد كانت هي وجميع أهلها ممن لاتتعدى الأطماع إليهن ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل » .

ولا تحسبن مايلقى من المكابرة في حبه أمراً هيناً ، أو تظنن أن حبه لم يبلغ من القوة بحيث يتغلب على عفته وصلابته . بل اعلم أن عاطفته تشتد كأقوى ماتشتد في فحول الرجال ، وهواه مضطرم عاصف لايقف له شيء ، وإن الذي ينعى إليه بعض من يحب من بلد نازح فيجد لذلك من الوجد والحزن ماتضيق معه

الأرض على رحبها ، حتى يفر بنفسه نحو المقابر ويهيم على وجهه بينها وهو ينشد [1]

وددت بأن ظهر الأرض بطن ... وأن البطن منها صار ظهراً
وأني مت قبل ورود خطب ... أتى فأثار في الأكباد جمرا
وأن دمي لمن قد بان غسل ... وأن ضلوع صدري كن قبرا

ثم يتصل به بعد حين كذب هذا النعي فلا يكاد يستقر فرحاً ثم ينشد :

بشرى أتت واليأس مستحكم ... والقلب في سبع طباق شداد
كست فؤادي خضرة بعد ما ... كان فؤادي لابساً للحداد
جلّى سواد الغم عني كما ... يجلى بنور الشمس لون السواد

إن الذي يهيم هذا الهيام ويستخفه نعي وبشرى ذلك الاستخفاف ، فتفيض لوعته كما يطفح فرحه ، إن هذا لرجل ممكّن له في دنيا الحب حتى بلغ فيها درجة الفناء على تعبير الصوفيين ، فإذا سلط على حبه هذا العظيم دينه وورعه ، عرفنا مبلغ قوة التدين فيه وأنه شيء لايكاد يفي بوصفه البيان .

* * *

هذا ما قصه علينا ابن حزم من أحاديث صبوته في صباه . وهو حين يتكلم فيما يعرض للحب والمحبين من أحوال ، أسرع ما

---

(١) طوق الحمامة ص ١٢٥ (٢) ص ٨٥

يكون إلى إيراد الشاهد في نفسه أو في غيره . وبهذا اطلعنا على خصائص حبه وتاريخ قلبه ، وأنه حب مكين يتأصل ببطء بعد امتحان طويل ، ولكنه ثابت لا يسلو عنه قط . قال في باب (من لا يحب إلا مع المطاولة) :

« وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة الشخص لي دهراً وأخذي معه في كل جد وهزل . وكذلك أنا في السلو والتوق : فما نسيت وداً لي قط ، وإن حنيني إلى كل عهد تقدم لي ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء ، ولا أسرعت إلى الأنس بشيء قط أول لقائي له ، وما رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذ كنت ، لا أقول : في الألاف والإخوان وحدهم ، لكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك . وما انتفعت بعيش ولا فارقني الإطراق والانعلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشجىً يعتادني وولوع هم ما ينفك يطرقني ، ولقد نغص تذكري ما مضى كل عيش أستأنفه ، وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء ودفين الأسى بين أهل الدنيا ، والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو . وفي ذلك أقول شعراً منه :

محبة صدق لم تكن بنت ساعة ولا وريت حين ارتياد زنادها

ولكن على مهل سرت وتولدت ... بطول امتزاج فاستقر عمادها
فلم يدن منها عزمها وانتقاضها ... ولم ينأ عنها مكثها وازديادها
يؤكد ذا أنا نرى كل نشأة ... تتم سريعاً عن قريب نهادها
ولكنني أرض عزاز صليبة ... منيع إلى كل الغروس انقيادها
فما نفذت منها لديها عروقها ... فليست تبالي أن يجود عهادها[1] »

وهذه غاية في الإخلاص وصدق المحبة والوفاء . وعلى هذا الغرار فليكن الحب المخلص والعلاقة البريئة وحفظ العهد .

ومن رزق حظ ابن حزم من العشق ، لم يروه منه شيء ، وكلما نهل طلب مزيداً ، لأن القلب الصادق الحب ظامئ أبداً مستزيد كلما روي ، بهذا حكم ابن حزم وأيد حكمه بهذه الحادثة التي رواها عن نفسه قال :

« وعني أخبرك أني ما رويت قط من ماء الوصل ، ولا زادني إلا ظمأ ؛ وهذا حكم من تداوى برأيه وإن رفه عنه سريعاً . ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى ، فما وجدتني إلا مستزيداً ، ولقد طال بي ذلك ، فما أحسست بسآمة ولا رهقتني فترة ، ولقد ضمني مجلس مع من كنت أحب ، فلم أجل خاطري في فن من فنون الوصل

---

(١) طوق الحمامة ص ٢٠٢ النهاد : المناهضة . والعهاد : المطر

إلا وجدته مقصراً عن مرادي وغير شاف وجدي ، ولا قاض أقل لبانة من لباناتي ، ووجدتني كلما ازددت دنواً ازددت تلوذاً ، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي فقلت في ذلك المجلس :

وددت بأن القلب شق بمدية ... وأدخلت فيه ثم أطبق في صدري
فأصبحت فيه لا تحلين غيره ... إلى منقضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ماحييت فإن أمت ... سكنت شغاف القلب في ظلم القبر (١)

ولست بحاجة إلى التنبيه على سمو هذه العاطفة وروعة هذا الشعر الصادق ، عبر فيه ابن حزم عن ذات صدره ولم يشأ الإغراق على طريقة الشعراء . وقد يبدو في شعره هذا شيء من الأثرة (الأنانية) لم يتصنع فيه الإيثار المألوف في الغزل ، لأنه إنما أحب لنفسه فترجم عن هذا الحب بأصدق عبارة وأدق صورة . ومن الطريف أن جدلاً قام بينه وبين أبي عبد الله محمد بن كليب في القيروان ، حول هذه النقطة ، كان فيها مجادله داعية إلى الإيثار فقال محمد :

— إذا كره من أحب لقائي وتجنب قربي فما أصنع ؟

ابن حزم — أرى أن تسعى في إدخال الروح على نفسك بلقائه وإن كره .

---

(١) طوق الحمامة ص ٥٩

محمد — لكني لا أرى ذلك ، بل أوثر هواه على هواي ، ومراده على مرادي وأصبر ولو كان في ذلك الحتف .

ابن حزم — إني إنما أحببته لنفسي ، ولالتذاذها بصورته فأنا أتبع قياسي وأقفو طريقتي في الرغبة في سرورها .

محمد — هذا ظلم من القياس : أشد من الموت ما تمني له الموت ، وأعز من النفس ما بذلت فيه النفس .

ابن حزم — إن بذلك نفسك لم يكن اختياراً بل كان اضطراراً ، ولو أمكنك ألا تبذلها لما بذلتها . وتركك لقاءه اختياراً منك ، أنت فيه ملوم لإضرارك بنفسك وإدخالك الحتف عليها .

محمد — أنت رجل جدلي ولا جدل في الحب[1] . »

وحيناً نرى ابن حزم يتحفنا بثمرات دراسته القيمة لأحوال المحبين ، فيطلعنا على الفرح الشديد ينعم به من أيقن بمحبة حبيبه ، وعلى الغم القاتل يقاسيه من حرم عطف من يحب ، والحالات النفسية التي يلقى بها المحب حبيبه غير مختار . ثم يطلعنا بإخلاص على سريرة نفسه وما وقع له هو في الحالين ، في نثر بديع يأخذ بمجامع القلوب ، قال :

---

(١) انظر طوق الحمامة ص : ٤٢

« ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ؛ ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء ، وتحكم الوزراء وانبساط مدبري الدول ، فما رأيت أشد تبجحاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده ، ووثق بميله إليه وصحة مودته له ؛ وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين ، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان : قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء . » ثم قال عن نفسه :

« ولقد امتحنت الأمرين وكنت في الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف : لا أجيب إلى الدنية ولا أساعد على الخضوع ، وفي الثانية أذل من الرداء وألين من القطن : أبادر إلى أقصى غايات التذلل لو نفع ، وأغتنم فرصة الخضوع لو نجع . وأتحلل بلساني ، وأغوص على دقائق المعاني ببياني . وأفنن القول فنوناً وأتصدى لكل مايوجب الترضي[1] . »

وأمر آخر في ابن حزم يثير الدهشة والإعجاب ، وهو أنه وصل في خبرته وتجاربه إلى نتائج مايماري فيها الإنسان لاستنادها

---

(١) طوق الحمامة ص ٦٧

على دراسة نفسية عميقة مع ملاحظة وانتباه وتأمل ، وكأني به في وصفه التغيرات (الفسيولوجية) التي تطرأ على المحب في حضرة حبيبه ، واحداً من كبار علماء النفس في عصرنا العشرين قال :

« وشيء أصفه لك تراه عياناً ، وهو أني مارأيت قط امرأة في مكان تحس أن رجلاً يراها أو يسمع حسها ، إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل ، وأتت بكلام زائد كانت عنه في غنية ، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك . ورأيت التهمم لمخارج لفظها وهيئة تقلبها لائحاً فيها ، ظاهراً عليها ، لا خفاء به ، والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء . وأما إظهار الزينة وترتيب المشي وإيقاع المزح عند خطور المرأة بالرجل واجتياز الرجل بالمرأة ، فهذا أشهر من الشمس في كل مكان . والله عز وجل يقول : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ [1]) وقال تقدست أسماؤه : (وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ [2]) فلولا علم الله عزوجل برقة إغماضهن في السعي لإيصال حبهن إلى القلوب ولطف كيدهن في التحيل لاستجلاب الهوى ، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذي ليس

---

(١) سورة النور (٢٤) الآية : ٣٠

(٢) سورة النور (٢٤) الآية : ٣١

وراءه مرمى . وهذا حد التعرض فكيف بما دونه »[1] .

* * *

ستقرأ قريباً كلمة ابن حزم في ترفعه عن الحرام ، وعصمته منه ، آخر الكلام على أخلاقه ، وستطلع الآن على السبب في أنه ما حل مئزره على حرام قط منذ عقل ، وأنه بريء الساحة نقي الحجرة ، وهو يعود في جملته إلى رقابة أسرته وتوجيه شيخه قال :

« وكان السبب فيما ذكرته (يعني من عفته العجيبة) أني كنت وقت تأجج نار الصبى وشرة الحداثة وتمكن غرار الفتوة مقصوراً محظراً علي : بين رقباء ورقائب ؛ فلما ملكت نفسي وعقلت صحبت أبا علي الحسين بن علي الفاسي في مجلس أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي شيخنا وأستاذي رضي الله عنه ، وكان أبو علي المذكور عاقلاً عاملاً عالماً ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح والزهد في الدنيا والاجتهاد للآخرة ، وأحسبه كان حصوراً لأنه لم تكن له امرأة قط ، وما رأيت مثله جملة : علماً وعملاً وديناً وورعاً ، فنفعني الله به كثيراً وعلمت موقع الإساءة وقبح المعاصي[2] » .

ونجاة ابن حزم من الحرام مع كثرة اختلاطه بالنساء وأنسهن إليه ، وإفضائهن إليه بأسرارهن ، واطلاعه منهاعلى مالايتيسر لغيره ... إحدى الأعاجيب التي لا تتأتى لبشر إلا في الفرط النادر .

---

(١) طوق الحمامة ص ١٢٤ (٢) طوق الحمامة ص ١٢٥ .

ويدهشني منه خروجه على المألوف من الغلط ؛ فيما شاع من تعريف الصالح والفاسق ، فقد ألف الناس لهاتين الكلمتين معنى بعيد الوقوع غير فطري . يشك فيه كل من أمعن في سيرة المختارين من البشر ... حتى وضع لهما ابن حزم الحدود المعقولة الواقعية ، مستفيداً من خبرته بخبايا الصدور وأسرار النفوس قال :

« إني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة أعني الصلاح غلطاً بعيداً . والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي : إذا ضبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت . والفاسدة هي التي : إذا ضبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش ، تحيلت في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق ، ولا يتعرض (للمناظر) الجالبة للأهواء ، ولا يرفع طرفه إلى الصور البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ويتصدى للمشاهد المؤذية ويحب الخلوات المهلكات . والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك ، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء »[1] .

---

(١) طوق الحمامة ص ١٢٣

وهذا نعت معقول ، ونظن أن الصالح — بالمفهوم الشائع — الذي لا يؤثر فيه الجمال ولا تحدثه نفسه بشيء حياله ... كائن لم يخلقه الله قط .

وبعد فهذا هو ابن حزم في حبه ونبله وسمو عواطفه وهزة نفسه ورقة حسه وطهارة ذيله ... عظيم نادر المثال في الرجال المحبين ، كما كان عظيماً نادر المثال في المفكرين أولى الأذهان الحداد والقرائح الصافية والعبقرية العجيبة .

ز ـــ أخلاقـه

البيت الذي درج فيه ابن حزم بيت فضل وتهذيب ونبل ، فلا عجب إذا نشأ كريم الخلق ، جم المزايا ، طيب النفس . ولقد عرفت — مما مر — كثيراً من سجاياه ورأيت إجماع من ترجموا له على صدقه وتحريه وتدينه وزهده وورعه وحشمتـه وسؤدده وتواضعه [1] وعفته .

عني والده — وكان جليلاً محتشماً كبير الشأن — بتنشئته أحسن العناية ، ورأى هو من أفراد أسرته السَرية من كانوا مثال الكمال وعلو الأخلاق ، وعاش محاطاً بجماعـة من طبقته فلم يصب بمعاشرة سفلة الناس ، وكان بمنأى عن الحاجـة التي تعرض صاحبها للذل والاحتيال ، وجد الدنيا تجر أذيالها في داره فتقلب في نعيمها ماشاء ، وبلغ من جاهها حتى منصب الوزارة ، ثم صدف عن ذلك كله وعكف على طلب العلم والمعالي .

أما أبوه الذي عرف أن السعادة لاتدوم لكائن ، فقد أخذ ولده بتوطين نفسه على الخشونة والقلة والنكد وكان فيما أوصاه به قوله :

---

(١) المقري والذهبي وابن بشكوال وياقوت والفتح بن خاقان .

إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها [١]

وأول ماشاهدناه من كبر نفسه زهده في جاه حاضر ، ودنيا مقبلة مع مجد طريف وتالد في الوزارة له ولأبيه قبله ، مع تحريه الحق مهما جر عليه ، ثم صلابته في المضي فيه متحملاً المكاره والشدائد . ولابن بشكوال كلمة جمعت أخلاقه في جملة واحدة وهي قوله : « كان . . . عاملاً بعلمه » .

ولم يذكروا من هناته إلا « طول لسانه واستخفافه ووقوعه في أئمة الاجتهاد بأقبح عبارة وأفظ محاورة وأمنع تمرد [٢] » . وإذا طرحنا نحن جانب المبالغة في هذا القول ، وجدنا عذره في ذلك ما سترى من مزاجه وحماسته في سبيل مايعتقد أنه الحق ، ثم اندفاعه في الجدل والنضال عن مذهبه ، مرخياً لحدته العنان . ونحن نعرف أن أصحاب العقائد من الناس أبعد عن المجاملة والمداراة . أما فيما لايمس العقيدة والعلم فقد كان ابن حزم مطبوعاً ـ كما قال ـ « على التأني والتربص والمسالمة [٣] ما أمكنت . » وعلى مقدار تشدد هذه الطبقة فيما يمس العقيدة تجد فيهم تساهلاً وتسامحاً فيما يمس

---

(١) نفح الطيب .

(٢) تذكرة الحفاظ .

(٣) طوق الحمامة ص ٥٤ .

أنفسهم وحظوظهم ، لدرجة يظنها الجاهل عجزاً ورهبة . وما هي بهما وإنما وجهوا مواهبهم وعزائمهم جهة واحدة سامية صرفوا إليها جهودهم ووقفوا عليها تفكيرهم وقواهم وجعلوها محوراً تركّز فيه كل شعورهم ، فلا يشغلهم عنها شاغل مهما أكبره الناس واهتموا به . وهذا هو السر في زهد الأنبياء ومن وليهم من من طبقات المصلحين أولي العقائد في حظوظ أنفسهم وعدم الانتصار لها ، ومقابلتهم السوء بالإحسان [1] حتى ليتجرأ عليهم — مع قوتهم — أضعف الناس ومن لايدفع عن نفسه . ولعل هذا أيضاً يفسر لك إعراض ابن حزم عن دنيا نشأ فيها ووزارة ذاق حلاوتها .

* * *

أما « وقوعه في أئمة الاجتهاد بأقبح عبارة » فلم أجد عليه شاهداً قط ، وليس في مخالفته أئمة الاجتهاد في آرائهم ما يعد من هذا القبيل ، وما كان تركك اجتهاداً ليعد طعناً في صاحبه : والذي أعرفه أن ابن حزم كان جم التواضع جم الأدب مع الأحياء والأموات ، وإليك الدليل :

جاء في طوق الحمامة قبل أبيات له :

« وأنا أقول من غير أن أمثل شعري بأشعارهم ، فلهم فضل التقدم والسابقة ؛ وإنما نحن لاقطون وهم الحاصدون ، ولكن اقتداء

---

(١) سيأتي شاهد هذا في ابن حزم بعد قليل .

بهم وجرياً في ميدانهم وتتبعاً لطريقتهم التي أنهجوا وأوضحوا[١] »

ومن كان أديباً مع الذين سبقوه من الشعراء فأحر به أن يكون أكثر أدباً مع الفقهاء وأئمة الاجتهاد

هذا كله مع استقلال في التفكير ، واعتداد بالنفس ، واستغناء عن كل أحد ، في جميع ما نظم وأرسل وألّف وفكر : « وما مذهبي أن أنضي مطية سواي ، ولا أتحلى بحلي مستعار[٢] . »

ومع هذا التواضع لم يبارحه كرمه قط ، حتى في حال محنته ، وكانت داره في مغتربه بشاطبة ، منزلاً لإخوانه مدة مقامهم بها[٣] . وأنا لم أنص على كرمه والزمن مقبل عليه ، وداره محط الرحال بقرطبة ، ومقصد أرباب الحوائج والمنتجعين ، ينالون فيها من ماله وجاهه ، لأن هذا أمر مألوف لا غرابة فيه ، وإنما الكرم الأصيل هو الذي لا يفارق صاحبه في أشد أيامه عليه .

أما الخلق النادر في الرجال ، في مثل زمن ابن حزم الرهيب ، فهو الوفاء وعزة النفس . وأيام المحن وتقلبات الدول هي أصدق الظروف لامتحان الأخلاق ، فيها يحيق المكروه بأصحاب الوفاء

---

(١) طوق الحمامة ص ٩٦

(٢) طوق الحمامة ص ٣

(٣) طوق الحمامة ص ٨٢

وفيها يغيض الوفاء ويستفيض الغدر ، ويشيع الرياء ويغيب الإخلاص . فمن صادق رجلاً دالت سلطته تبرأ منه في سلطة خصمه تجنباً لأذاه ، أو آذاه تقرباً لدى السلطان . وأعزاء النفوس أيام الرخاء يضطرون إلى إهانتها في الشدائد ، إلا أناساً قليلين يستحلون الموت والعذاب الأليم في سبيل أخلاقهم . ومن هذا القليل النادر صاحبنا ابن حزم .

أخبر عن نفسه — وهو الصادق بإجماع — فقال :

« لقد منحني الله عز وجل من الوفاء لكل من بيت إليّ بلقية واحدة ، ووهب لي من المحافظة لمن يتذمم مني ولو بمحادثته ساعة حظاً أنا له شاكر وحامد ، ومنه مستمد ومستزيد . وما شيء أثقل عليّ من الغدر ، ولعمري ما سمحت نفسي قط في الفكرة في اضرار من بيني وبينه أقل ذمام وإن عظمت جريرته ، وكثرت إليّ ذنوبه . ولقد دهمني من هذا غير قليل ، فما جزيت على السوءى إلا بالحسنى والحمد لله على ذلك كثيراً[1] . »

ووضّح أكثر من هذا في موضع آخر بكلمة تكاد تكون صورة صادقة لحياته مع الناس قال :

« وعني أخبرك أني جبلت على طبيعتين لا يهنيني معهما عيش

---

(١) طوق الحمامة ص ٧٨

أبداً ، وإني لأبرم بحياتي باجتماعهما ، وأود التثبت من نفسي أحياناً لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما وهما : وفاء لايشوبه تلون ، قد استوت فيه الحضرة والمغيب ، والباطن والظاهر تولده الألفة التي لم تعزف بها نفسي عما دريته ، ولا تتطلع إلى عدم من صحبته ، وعزة نفس لاتقر على الضيم ، مهتمة لأقل مايرد عليها من تغير المعارف ، مؤثرة للموت عليه . فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها . وإني لأجفى فأحتمل ، وأستعمل الأناة الطويلة والتلوم الذي لايكاد يطيقه أحد ، فإذا أفرط الأمر وحميت نفسي تصبرت وفي القلب مافيه ، وفي ذلك أقول:

لي خلتان أذاقاني الأسى جرعاً ... ونغصا عيشتي واستهلكا جلدي
وفاء صدق فما فارقت ذا مقة ... فزال حزني عليه آخر الأبد
وعزة لايحل الضيم ساحتها ... صرامة فيه بالأموال والولد[1]

وما مر بك من حياة ابن حزم شرح ضاف لكلمته هذه . وإنه ليغلو في خلق الوفاء حتى لينقلب نوعاً من الإلفة التي لاصبر له على فراقها ، بل يغرق أكثر من ذلك فيفي لما يألفه من الأشياء قال ص ٢٢ : « فما نسيت وداً لي قط ، وإن حنيني إلى كل عهد تقدم لي ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء . وقد استراح من

(١) طوق الحمامة ص ١٤ .

لم تكن هذه صفته ، وما مللت شيئاً بعد معرفتي به ... وما رغبت في الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذ كنت ، لا أقول في الألاف والإخوان وحدهم ، لكن في كل مايستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم .. »

* * *

لابن حزم إلى جانب فضائله أشياء ربما عدها بعض الناس من العيوب . ومما يعجبني أن يدل عليها هو نفسه بصراحته المعهودة وصدقه المألوف . فقد ذكر السر في كثرة اطلاعه على شؤون النساء وأسرارهن وعدم نسيانه لحوادثهن فقال : « وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها وسوء ظن في جهتهن فطرت به [1] » وفي موضع آخر . « ولقد اطلعت من سر معتقد الرجال والنساء في هذا على أمر عظيم . وأصل ذلك أني لم أحسن قط بأحد ظناً في هذا الشأن مع غيرة شديدة ركبت فيّ [2] » وذكر بعد ذلك لنفسه صفة أخرى وهي الكتمان ، فقد أفادته في الغوص على أسرار النساء ووفى هو بعد ذلك فلم يبح بشيء اطلع عليه قال : « فلم أزل باحثا عن أخبارهن كاشفا عن أسرارهن وكن

---

(١) طوق الحمامة ص ٤٧ .

(٢) ص ١٢٤ .

قد أنسن مني بكتمان فكن يطلعنني على غوامض امورهن ، ولولا أن أكون منبهاً على عورات يستعاذ بالله منهـا لأوردت من تنبههن في الشر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباء [1] . »

هذا ، وأميز صفات ابن حزم وأبعدها في الدلالة على رجولته وصلابته ومتانة خلقه : أنه مع تربيته في حجور النساء وترعرعه بينهن ، ومخالطته لكثير منهن ، واطلاعه على أسرارهن ... مع هذا كله لم يخرج عن عفته لحظة من اللحظات ، مع اعتقادي بأنه لو عرض لغيره بعض ما عرض له ما ثبت أمام نفسه لحظة واحدة . وهذا خلق عظيم يقدره من عرف النفس البشرية وضعفها في هذا الباب .

وأحب شيء لديّ أن أستمع لهذه النفس الكبيرة الصادقة ، وهي تتبرأ مما قد يقع في خلد كل قارئ لكتابه (طوق الحمامة) ، وكأنها تعطيه بعض العذر في ظنه السوء ، لأن من خبر من جماعات النساء ما خبر مؤلف الطوق لا يعقل بحال أن ينجو من الحرام . ونحن نميل إلى هذا الظن أيضاً ولكن في رجل غير ابن حزم :

قال بعد ذكر حوادثهن وأسرارهن :

« وإني لأعرف هذا وأتقنه ، ومع هذا يعلم الله — وكفى به علماً — أني بريء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقي

---

(١) طوق الحمامة ص ١٢٥

الحجرة . وإني أقسم بالله أجل الأقسام أني ما حللت مئزري على فرج حرام قط ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنى مذ عقلت إلى يومي هذا . والله المحمود عَلَى ذلك والمشكور فيما مضى ، والمستعصم فيما بقي »[1] .

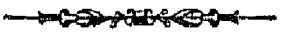

(١) طوق الحمامة ص ١٢٥ . هذا ومعلمة الإسلام تجعل زمن كتابته (طوق الحمامة) حول سنة ٤١٨ هـ ، فإن صح هـذا كان كلام ابن حزم المذكور بعد أن اجتاز مرحلتين خطيرتين : دور المراهقة والفتوة وأكثر دور الشباب ، وسنه حينئذ ٣٤ سنة وكان قد مضى على انقطاعه عن مجامع صباه وعكوفـه على العلم والتأليف والدعوة سنون ثمان .

ح — مزاجـــه

تميز ابن حزم بمزاج حاد عنيف سيطر عليه طول حياته ، وجرّ عليه ما جرّ من تأليب الناس . وقد كان رحمه الله يعزو حدته لمرض فيه . ويستطيع من قرأ له فصلاً كاملاً من فصوله التي يجادل فيها المخالفين ، أن يجد في أسلوبه مناكر لا يمكن التسامح بها ، فهو في نقاشه معهم غير هادئ ولا واسع الصدر ، فكثيراً ما يستنزل عليهم لعنة الله وغضبه وقتاله ، وكثيراً ما يصمهم بالضلال والمروق والكفر والفسوق ، وأكثر من ذلك طعنه في عقولهم وعلومهم ونياتهم . وستقرأ من هذه الخيرات في رسالته (في المفاضلة) طائفة صالحة ، فوطن النفس على تحملها مذ الآن .

وليس لنا إلا أن نأسف لهذه الهفوات يقع فيها عالم جليل قلما جاد الزمان بمثله ، وهو كان أحق الناس باتباع سنة أمر الله بها في قوله : « وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »[1] وقوله : « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »[2] وقوله : « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ »[3] .

---

(١) سورة النحل (١٦) الآية : ١٢٥

(٢) سورة العنكبوت (٢٩) الآية : ٤٦

(٣) سورة فصلت (٤١) الآية : ٣٤

ولو كان للمرء أن يخرج على طبعه وجبلته لاستأصلنا شروراً كثيرة ، فلندعْ ما لا حيلة فيه ، ولنلتمس العذر لهذه النفس الخيّرة والعقل الكبير .

لم تترك الصراحة والحدة والصلابة لابن حزم صديقاً ولا شفيعاً عند الناس ، يجتهد في الرأي الاجتهاد الصائب ويتصيد الحجج القوية المحكمة ، ثم يشوّه ذلك كله بعبارات التقريع حتى يزهد السامع في خير الكلام وشره ، وحتى لا يكون عنده في اجتهاده الصائب وحجته السديدة شافع لهفوته وحدته . وقد مرت بك آنفاً كلمة ابن حيان : « ولم يكن يلطف صدعه بما عنده بتعريض ولا يرقه بتدريج بل يصكّ به معارضه صك الجندل وبنشقه إنشاق الخردل . » وأنه مع ما أوقعه عنفه فيه من المصائب والتغريب والسجن وإحراق الكتب ، بقي « غير مرتدع ولا راجع » .

قال الذهبي : « وقد امتحن هذا الرجل وشدد عليه ، وشرد عن وطنه ، وجرت عليه أمور لطول لسانه واستخفافه بالكبار ، ووقوعه في أئمة الاجتهاد ، بأقبح عبارة وأفظ محاورة وأمنع رد . » ولست أجد في صفة لسانه كلمة أصدق من كلمة ابن العريف : « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين » ولا والله ما يستويان فقد أفادت شدة الحجاج فوطدت ملكاً وقطعت مفاسد

وأُمّنت مخاوف ثم خلد نفعها إلى الأبد وزال ضررها بزواله : ولم يفد عنف ابن حزم شيئاً بل أفسد عليه ما يرجو من نشر خير ودعوة إلى حق ، ثم مات وبقيت آثار لسانه تمض كل من يقرأ كتبه سواء كان من الفرق التي نالها بالقوارص أو لم يكن :

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

أما صلابته فهي في ثباته على هذا الأسلوب في علائقه مع الناس على رغم كل ما ناله ، وبقي رحمه الله طول حياته يتلقى عواقب مزاجه مما لا يحمله أقوى الرجال رجولة . ولا يزيده ذلك إلا مضياً في سبيله ، وعناداً في جداله وحماسة في كفاحه وعنفاً في خطابه . لقد أوتي العلم ولم يؤت سياسته وسياسة العلم — على ما قالوا — أعوص من إتقانه . قال ابن حيان : « وأكثر معايبه — عند المنصف له — جهله بسياسة العلم » .

ولست أريد قدحاً في ابن حزم وقد قدّمت له العذر المقبول من مزاجه وطبعه ، وأنا أعلم حق العلم أن اندفاعه وغلوّه في الدعوة وحماسته لها لم تكن إلا عن عقيدة وإخلاص وتفانٍ فيما يرى أنه الحق ، ومن كان في هذه المرتبة من الجهاد لم يبال الهفوات الصغار تصدر من هاهنا وهاهنا . ولقد أشار إلى هذا ابن حيان بعض الإشارة حين قال : « كان يحمل علمه هذا ويجادل من

خالفه فيه ، على استرسال في طباعه ، وبذل بأسراره ، واستناد على العهد الذي أخذه الله على العلماء من عباده (لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ) »[1] .

عَلَى هذه الطباع قامت علائق ابن حزم مع الناس موافقين ومخالفين ، فلننظر فيها وفي آرائهم فيه ، في حياته وبعد مماتـه .

(١) سورة آل عمران ٣ الآية : ١٨٧

ط ــ هو والناس

« من قدر أنه يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون »
« ابن حزم »

أكثر ابن حزم من الحساد والأعداء ببعده عن المصانعة وانتقاده أكثر فقهاء عصره ، وويل للفقهاء وويل منهم ويلاً كثيراً إذا دبت بينهم العداوة والحسد . لقد تألبوا على ابن حزم وكفروه وضللوه وحذروا منه العوام والسلاطين وطاردوه بدعايتهم من بلد إلى بلد ومن بادية إلى بادية ، وحذرته الملوك وتفادت لقاءه وتقربت إلى العامة باضطهاده . لقد لقي في حياته أذىً كثيراً ، وحمل صدره آلاماً كباراً ، وكان ينفّس عن نفسه بعض الوقت في أبيات يرسلها تفيض عزةً كما تفيض شكوى من الحساد جاء في كتابه طوق الحمامة ص ٧٩ « إن قوماً من مخالفيّ شرقوا بي ، فأساؤوا العتب في وجهي ، وقذفوني بأني أعضد الباطل بحجتي ، عجزاً منهم عن مقاومة ما أوردته من نصر الحق وأهله ، وحسداً لي ، فقلت وخاطبت بقصيدتي بعض إخواني ــ وكان ذا فهم ــ منها (الأبيات غير متتابعة) :

وخذني عصا موسى وهات جميعهم ولو أنهم حيات ضال نضانض

يريغون في عيني عجائب جمة وقد يُتمنى الليث والليث رابض
ويرجون مالا يبلغون كمثل ما يرّجي محالاً في الإمام الروافض

عانى ابن حزم من عصريه ما يعاني كل عبقري : نكران فضل ، وجحود إحسان ، وحسداً وطعناً واتهاماً . ومن حسن الحظ أن الزمان سمح لقليل من شعره بالسلامة ، فلمسنا فيه شكواه وآلامه ، لمساً يغنينا عن كثير من تفاصيل الترجمة ، قال وقد صرح بالعوامل التي غيّبت فضله على مواطنيه ، من أبيات بعث بها إلى قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن بشير :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي (الغرب)
ولو أنني من جانب الشرق طالع لجدّ على ماضاع من ذكري النهب
ولي نحو آفاق العراق صبابة ولاغرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب !
فكم قائل أغفلته وهو حاضر وأطلب ما عنه تجيء به الكتب
هنالك تدري أن للعبد قصة وأن كساد العلم آفته القرب
فياعجباً : من غاب عنهم تشوقوا له ، ودنوّ المرء من دارهم ذنب
وإن مكاناً ضاق عني لضيق على أنه فسحٌ مهامهه سهب
وإن رجالاً ضيعوني لضيّع وإن زماناً لم أنل خصبه جدب [1]

(١) ياقوت ، المقري . المهامه : الفيافي ، السهب : الواسعة .

لقد جرب الناس منذ القدم فوجدوا أن «المعاصرة حرمان» وأن أزهد الناس في عالم أهله وجيرانه . وقلما ظهر فضل فاضل في حياته في غير غربة .

وقال من قصيدة :

أنا العِلْق الذي لا عيب فيه ... سوى بلدي وأني غير طاري
تُقر لي العراق ومن يليها ... وأهل الأرض إلا أهل داري
طووا حسداً على أدب وفهم ... وعلم ما يشقّ له غباري
فمهما طار في الآفاق ذكري ... فما سطع الدخان بغير نار[1]

وقد تقدم لك في الكلام على مصنفاته ، قوله في إحراق كتبه ، وله أشعار كثيرة طافحة بشكوى الحسد وآلامه من حساده وتقريعه الشامتين بنكبة الناس على ما عموا عن إدراكه من فضله ، من مثل قوله :

لا تشمتن حاسدي إن نكبة عرضت ... فالدهر ليس على حال بمتروك
ذو الفضل كالتبر يلقى تحت متربة ... طوراً وطوراً يرى تاجاً على ملك[2]

ومن شدة بلاء ابن حزم أنه كان في أسرته من ناصبه العداء والحسد ، هذا ابن عمه أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم

---

(١) ياقوت ـ والعلق : التحفة النفيسة التي تعلق .

(٢) ياقوت والمقري .

الوزير الكاتب الأديب ، يضن عليه بعطفه ، ويخذله ، ويعين الزمان عليه وكان من حقه أن يعينه على الزمان ، وتدب إليه عقارب الحسد لفضل ابن عمه ، وكان عليه أن يكون أول الفخورين به . أرسل إليه رسالة عاقة جافية ، اضطر ابن حزم إلى أن يجيبه عليها بما يلي :

[(١) سمعت وأطعت لقوله تعالى : (وأعرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ)(٢) .

وأسلمت وانقدت لقول نبيه عليه الصلاة والسلام (صل من قطعك واعف عمن ظلمك) ورضيت بقول الحكماء (كفاك انتصاراً ممن تعرّض لأذاك إعراضك عنه) وأقول :

تتبع سواي امرأً يبتغي ... سبابك إنّ هواك السباب
فإني أبيْت طلاب السفاه ... ونزهت عرضي عما يعاب
وقل ما بدا لك من بعد ذا ... وأكثر فإن سكوتي خطاب

وأقول :

كفاني بذكر الناس لي ومآثري ... ومالك فيهم - يابن عمي - ذاكر
عدوي وأشياعي كثير، كذاك من ... غدا وهو نفاع المساعي وضائر
وإني وإن آذيتني وعققتني ... لمحتمل ما جاءني منك صابر]

فوقّع له أبو المغيرة على ظهر رقعته :

---

(١) هذه المراسلة في نفح الطيب للمقري الجزء الأول ترجمة ابن حزم .

(٢) سورة الأعراف (٧) الآية : ١٩٨

« قرأت هذه الرقعة العاقة ، فحين استوعيتها أنشدتني :

نخنخ زيد وسعل لما رأى وقع الأسل

فأردت قطعها وترك المراجعة عنها ، فقالت لي نفسي : قد عرفت مكانها ، بالله لا قطعتها إلا يده . فأثبت على ظهرها مايكون سبباً إلى صونها فقلت :

نعقت ولم تدر كيف الجواب وأخطأت حتى أتاك الصواب
وأجريت وحدك في حلبة نأت عنك فيها الجياد العراب
وبت من الجهل مستصحباً لغير قرى فأتتك الذئاب
فكيف تبينت عقبى الظلوم إذا ما انقضت بالخميس العقاب
لعمري مالي طباع تذم ولا شيمة يوم مجد تعاب
أنيل المنى والظبا سُخط وأعطي الرضا والعوالي غضاب

وأقول :

وغاصب حق أوبقته المقادر «يذكرني (حاميم) والرمح شاجر»[1]

---

(١) الشطر الثاني من مقطوعة قيلت في حرب الجمل : فإنه لما اشتدت المعركة أتى محمد بن طلحة إلى السيدة عائشة فقال : « يا أماه مريني بأمرك » قالت : « آمرك أن تكون كخير بني آدم إن تركت » فحمل فجعل لا يحمل عليه أحد إلا حمل عليه وقال : « حم لا ينصرون » واجتمع عليه نفر من أصحاب علي فأنفذه أحدهم بالرمح وقال :

وأشعث قوّام بآيات ربه قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
هتكت له بالرمح جيب قميصه فخر صريعاً لليدين وللفم
يذكرني (حاميم) والرمح شاجر فهلا تلا (حاميم) قبل التقدم

غداً يستعير الفخر من خيم خصمه ... ويجهل أن الحق أبلج ظاهر
ألم تتعلم يا أخا الظلم أنني ... برغمك ناه منذ عشر وآمر
تذل لي الأملاك حر نفوسها ... وأركب ظهر النسر والنسر طائر
وأبعث في أهل الزمان شوارداً ... تاينّهم وهي الصعاب النوافر
فإن أنو في أرض فإني سائر ... وإن أنأ عن قوم فإني حاضر
وحسبك أن الأرض عندك خاتم ... وأنك في سطح السلامة عاثر
ولا لوم عندي في استراحتك التي ... تنفست عنها والخطوب الفواقر
فإني للحلف الذي مر حافظ ... وللنزعة الأولى بجاميم ذاكر
هنيئاً لكل ما لديه فإننا ... عطية من تبلى لديه السرائر

بهذه الشدة كانت معاملة أقربائه ، وقديماً قال طرفة :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

* * *

إجماع فقهاء عصره على تضليله ، ونزعته السياسية في عصبيته لبني أمية على غيرهم من قريش ، وتوحش الحكام عادة ممن سبقت له سلطة وانتزعت منه ... جعلت من حياة ابن حزم معارك متلاحقة لاينفض عن نفسه غبار معركة حتى تقوم له أخرى يذكيها حساده ومنافسوه .

جادل اليهود والنصارى أشد جدال وأقساه ، ثم نازع أرباب المذاهب من المسلمين فلم يرفق بهم في شيء قط ، « وكانت له

معهم مجالس محفوظة وأخبار مكتوبة[1] » ، واستطاع أن يجلب جماهير إلى مذهبه ، مما حرك خصومه أن يرصدوا له ويسدوا عليه الطرق . ولم يتنفس إلا أياماً قليلة في جزيرة ميورقة ، تحت ظل حاكمها ابن رشيق وكان قد دخلها لينشر مذهبه الظاهري بدعوة من الحاكم نفسه على ما مر بك سابقاً .

قامت مناظرات عديدة ومنافرات بينه وبين الفقيه أبي الوليد الباجي ، فكان إذا غلبت حجة ابن حزم عيّره الباجي بغناه ، وأدلّ عليه بالفقر ، وقد مر بك جواب ابن حزم المفحم للباجي .

وسبب الخصام بينهما هو محمد بن سعيد من أهل ميورقة فإنه على ما ذكر ابن الأبار « صدر[2] إلى ميورقة وقعد لإقراء الفقه والأصول ، ولما دخلها أبو محمد ابن حزم كتب ابن سعيد هذا إلى الباجي فسار إليه من بعض سواحل الأندلس وتضافرا جميعاً ، وناظراه فأفحماه وأخرجاه منها ، وكان ذلك سبب العداوة بين الباجي وابن حزم »

قال المقري[3] « وجد لكلام ابن حزم طلاوة ، إلا أنه كان خارجاً عن المذهب ، ولم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه

---

(١) إرشاد الأريب .

(٢) التكملة لابن الأبار رقم ٤٤٣

(٣) نفح الطيب ١ : ٣٥٤ .

فقصرت ألسنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه . واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل (سبحان الله يامقري) وحل بجزيرة ميورقة فرأس فيها واتبعه أهلها . فلما قدم أبو الوليد كلموه في ذلك فدخل إليه وناظره وشهر باطله [1] وله معه مجالس كثيرة . »

هكذا قال المقري ، وقد رأيت فيما سبق (ص ٣٨) أن الباجي كان يتقعر في التنقير على ما يعيب به ابن حزم حتى إذا لم يجد عمد إلى ذكر غناه ، ومع هذا فانظروا الإنصاف وقول الصدق عند ابن حزم حين عرض لذكر خصمه الباجي فقال :

« لولم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب إلا مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم . » لقد كان ابن حزم في هذا كبير النفس نبيلها .

وأشد من جرد على ابن حزم لسانه فيما أحسب : القاضي أبو بكر ابن العربي ، بعد أكثر من مئة عام ، وقد عرفت رأيه الظالم في الظاهرية فتأمل شهادته في ابن حزم ، قال :

« [2] ... وكان أول بدعة لقيت في رحلتي القول بالباطن ، فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيف كان من بادية إشبيلية يعرف بابن حزم : نشأ وتعلق بمذهب الشافعي ثم

---

(١) كان ذلك نحو عام ٤٤٠ هـ على ماذهبت إليه معلمة الإسلام .

(٢) تذكرة الحفاظ .

انتسب إلى داود ، ثم خلع الكل واستقل بنفسه وزعم أنه إمام الأمة يضع ويرفع ، ويحكم ويشرع ، ينسب إلى دين الله ماليس فيه ، ويقول عن العلماء مالم يقولوا ، تنفيراً للقلوب عنهم ، وخرج عن طريق المشبهة في ذات الله تعالى فجاء فيه بطوام ، واتفق بين قوم لابصر لهم إلا بالمسائل ، فإذا طالبهم بالدليل كاعوا فيتضاحك مع أصحابه منهم . وعضدته الرياسة بما كان عنده من أدب ونسبة كان يوردها على الملوك فكانو يحملونه ويحمونه لما كان يلقي إليهم في شبه البدع والشرك . وفي حين عودي من الرحلة ألفيت حضرتي منهم طافحة ، ونار ضلالتهم لائحة ، فقاسيتهم مع غير أحزان ، وفي عدم أبصار إلى حسان يطؤون عقبي (؟) تارة تذهب لهم نفسي وأخرى تنكسر لهم ضرسي . وأنا مابين إعراض عنهم وتشغيب بهم .

وقد جاءني رجل بجزء لابن حزم سماه (نكت الإسلام) فيه دواهي فجردت عليه نواهي ، وجاء آخر برسالة في الاعتقاد فنقضتها برسالة الغرة . والأمر أفحش من أن ينتقض ... »

هذا وإليك قصيدته التي يشرح فيها ما لاقى من الناس فيما خص مذهبه الديني فقط :

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت أقوالهم وأقاويل العدى محن

فقلت هل عيبهم لي غير أني لا ... أقول بالرأي إذ في رأيهم فتن
وأنني مولع بالنص لست إلى ... سواه أنحو ولا في نصره أهن
لا أنثني نحو آراء يقال بهـا ... في الدين، بل حسبي القرآن والسنن
يا برد ذا القول في قلبي وفي كبدي ... ويا سروري به لو أنهم فطنوا
دعهم يعضوا على صم الحصى كمداً ... من مات من قوله عندي له كفن
إني لأعجب من شأني وشأنهم ... واحسرتا إنني بالناس ممتحن
ما إن قصدت لأمر قط أطلبه ... إلا وطارت به الأظعان والسفن
أمـا لهم شغل عني فيشغلهم ... أو كلهم بي مشغول ومرتهن
كأن ذكري تسبيح به أمروا ... فليس يغفل عني منهم لسن
إن غبت عن لحظهم ماجوا بغيظهم ... حتى إذا ما رأوني طالعاً سكنوا
دعوا الفضول وهبّوا للبيان لكي ... يدري مقيم على الحسنى ومفتتن
وحسبي الله في بدء وفي عقب ... بذكره تدفع الغماء والإحن

هذه المقاومـة الشديدة ، وإن ضايقت ابن حزم ونغصت عيشه ، أجدت على المكتبة العربية وعلى العلوم أعظم الجدوى : فقد اضطرته إلى أن يجرد لسانه وقلمه ويتجول مجاهداً في سبيل دعوته واعظاً ومعلماً ومؤلفاً ، قال في رسالته (مداواة النفوس ص ٣٠) : « انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة : وهي أنه توقد طبعي واحتدم خاطري وحيي فكري وتهيج نشاطي ، فكان

ذلك سبباً إلى تواليف عظيمة النفع ، ولولا استشارتهم ساكني واقتداحهم كامني ما انبعثت لتلك التواليف »

فإلى هؤلاء يعود إذاً فضل غير مباشر بما ننعم به من ثمرات هذا الفكر الخصب ، والله سبحانه زاوج في هذه الدنيا بين الخير والشر ، فليس عليها خير محض ولا شر محض .

والظاهر أن الحملة عليه التي لم تنقطع بمماته ، ولم تقتصر على ابن العربي كما ستعرف بعد قليل .

ترى هذا النمط من المتحاملين وإلى جانبه طرازاً آخر من الناس ، أخذوا أنفسهم بقول الحق فذكروا المحاسن والهفوات ، من هؤلاء أبو مروان بن حيان وقد مر بك أكثر قوله فيه بمناسبات مختلفة وخاتمته قوله : « . . . إلى أن يحرّك بالسؤال فيفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء » .

قال الذهبي عقب روايته لكلام ابن حيان : « هذا القائل منصف ، فأين كلامه من كلام أبي بكر بن العربي وهضمه لمعارف ابن حزم » .

وبعد أن أورد ابن حيان شعره في نعي نفسه قال :

« ويا لبدائع هذا الحبر علي وغرره ، ما أوضحها على كثرة الدافنين لها والطامسين لمحاسنها . وعلى ذلك فليس ببدع فيما أضيع

منه ، فأزهد الناس في عالم أهله ، وقبله ردي العلماء بتبريزهم على من يقصر عنهم ، والحسد داء لا دواء له » .

قلت (المتكلم ابن بسام) :

« ولعمري ما عقه ، ولا بخسه حقه »[1] .

ومن هؤلاء المنصفين الحافظ الكبير العدل الحجة الإمام الذهبي فقد شهد بأن « ابن حزم رجل من العلماء الكبار فيه أدوات الاجتهاد كاملة . تقع له المسائل المحررة والمسائل الواهية كما يقع لغيره . وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ . »

وصف ابن حزم مثبطات مجمعه الأندلسي وصفاً دقيقاً ، ولئن كان أجاد وطبق المفصل ، إنه إنما كان يصف ما عانى منه هو نفسه خاصة . والوصف في الجملة عام ينطبق على كل عالم نبغ بالأندلس فلنختم هذا الفصل بكلمته فإن فيها تاريخاً وبلاغاً قال :

« وأما[2] جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر : أزهد الناس في عالم أهله . وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : لا يفقد النبي حرمته إلا في بلده . وقد تيقنا ذلك

---

(١) مجلة المقتبس ١ : ٦

(٢) نفح الطيب ٢ : ١٣٠

بما لقي النبي ﷺ من قريش وهم أوفر الناس أحلاماً وأصحهم عقولاً وأشدهم تثبتاً ، مع ما خصوا به من سكناهم أفضل البقاع وتغذيتهم بأكرم المياه حتى خص الله تعالى الأوس والخزرج بالفضيلة التي أبانهم بها عن جميع الناس والله يؤتي فضله من يشاء . ولاسيما أندلسنا فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتي به واستهجانهم حسناته وتتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف ما في سائر البلاد ، إن أجاد قالوا : سارق مغير ومنتحل مدّع ، وإن توسّط قالوا : غث بارد وضعيف ساقط ، وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفي أي زمن قرأ ؟ ولأمه الهبل . وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقين: إما شفوفاً دائماً يعليه على نظرائه ، أو سلوكاً في غير السبيل التي عهدوها ، فهنالك حمي الوطيس على البائس وصار غرضاً للأقوال وهدفاً للمطالب ونصباً للتسبب إليه ونهباً للألسنة وعرضةً للتطرق إلى عرضه . وربما نحل ما لم يقل وطُوِّق ما لم يتقلد ، وأُلحق به ما لم يفه به ولا اعتقده قلبه وبالحراء — وهو المبرز السابق إن لم يتعلق من السلطان بحظ — ألا يسلم من المتالف وينجو من المخالف . فإن تعرض لتأليف غمز ولمز ، وتعرض له وهمز واشتط

عليه وعظم يسير خطبه ، واستشنع هيّن سقطه ، وذهبت محاسنه وسترت فضائله ، وهُتف ونودي بما أغفل ، فتنكسر لذلك همته وتكل نفسه وتبرد حميته . وهذا عندنا يصيب من ابتدأ يحوك شعراً أو يعمل بعمل رياسة فإنه لا يفلت من هذه الحبائل ، ولا يتخلص من هذه النصب إلا الناهض الفائت والمطفف المستولي على الأمد . »

هذا ما تناهت إليه حاله مع الفقهاء والحكام وقد مضى الجميع إلى ربهم يحاسبهم وهو سبحانه يضع الموازين القسط ، ولا تظلم عنده نفس شيئاً .

وموضع الإشفاق في نكد ابن حزم أن خصومة الناس له لم تنقطع بموته بل استمر حظه السيء ينسج حول اسمه ذيولاً من الانتقاص والتعنت في محاسبته ، حتى نهى الشيوخ فيما بعد عن قراءة كتبه ، وحتى صرت ترى العالم أو المؤلف ، إذا استفاد من حكم لابن حزم أو اقتبس شيئاً من كلامه في تصانيفه عقّب عليه بما يشعرك بعدم الاحترام ، ولست أحيلك على كتب الفرق التي خاصمها ابن حزم واشتد عليها [1] ، وإنما أعرض عليك

---

(١) ولا بأس أن تطلع من ذلك على عواطف إمام مجتهد شيعي هو بلدينا وعصرينا السيد محسن الأمين العاملي من معتدلي الإمامية والقائلين بالتقريب بين مذاهب المسلمين ، ولك أن تقيس على عواطفه —

مثلاً واحداً منتزعاً من كتاب لأحد أعلام أهل السنة ، نجد له أمثالاً كثيرة في تضاعيف المؤلفات نقل الزرقاني في (شرح المواهب) رأي ابن حزم في تفضيله أزواج النبي ﷺ على السيدة فاطمة وغيرها ، فلم يسعه إلا أن يجود بهذه العبارات : «قاله من لا يعتدّ به ! ! . . . وهو قول ساقط مردود ضعيف لا مستند له من نظر ولا نقل ! !»[1].

وليس كل من خالف الجمهور في مسألة يقال له هذا ، وليس ابن حزم بالذي يرسل القول ضعيفاً من غير مستند له من نظر

— نحو ابن حزم عاطفة غيره من الشيعة ممن هم أقل اعتدالا وأشد عصبية . قال يذكر رأيه في كتاب ابن حزم الكبير الفصل في الملل والأهواء والنحل : « وأمامنا الآن الجزء الثالث من كتاب ابن حزم المسمى بالفصل في الملل والنحل ، المطبوع بمصر ، وقد وجدنا فيه من الكذب والافتراء على الشيعة ومصادمة الحقائق بالإنكار وإظهار النصب والعداوة لأهل البيت وشيعتهم وأتباعهم وإطلاق لسانه بالسوء ما تقشعر منه الأبدان فاكتفينا بإيراد شيء من ذلك وتفنيده لأن استقصاء سخافاته كلها وتفنيدها يطول به الكلام وأكثره واضح البطلان » . اه أعيان الشيعة ١ : ٩٦

(١) شرح المواهب ٣ : ٢٢٥ وممن ذهب في ابن حزم هذا المذهب ، السبكي في طبقاته فقد قال عن كتابه (الفصل) : « كتابه هذا من أشهر الكتب ، وما برح المحققون من أصحابنا ينهون عن النظر فيه لما فيه من الازدراء بأهل السنة ، وقد أفرط فيه في التعصب على أبي الحسن الأشعري حتى صرح بنسبته إلى البدعة . اه انظر كشف الظنون ٢ : ٥٧١

أو نقل ، وسترى قوة حجته حين تصل إلى رسالته « في المفاضلة بين الصحابة . »

والظاهر أن خصومة الناس للرجل حياً وميتاً رزق من الله لا يؤتيه في الغالب إلا المخلصين الأحرار، الصدّاعين بالحق الجبّاهين به . جعل الله جزاء ابن حزم من جهاده أكثر مما لاقى في حياته من عنت الناس وأذاهم وكيدهم .

ي ــ وفــاته

استقرت النوى [1] بهذا المجاهد العظيم ، بعد أن طوّف في مدن الأندلس ورحل إلى القيروان وجزيرة (ميورقة) : يلفظه بلد إلى بلد ، وتقذفه بادية إلى بادية ، حتى أراد الله له الطمأنينة فاستراح إلى الأبد في قريته بالبادية من غرب الأندلس على خليج البحر الأعظم : مطارداً منفياً . استأثر الله بروحه في ٢٨ شعبان سنة ٤٥٦ [2] هـ ودفن بقريته (مُنْلِجَتَم) التي هي ملكه وملك آبائه من قبله . وختمت بوفاته إحدى وسبعون سنة قمرية وأحد عشر شهراً إلا يومين ؛ قضاها في كفاح ونضال ، ومرارة ونفي وإيذاء وتشريد ، صابراً محتسباً مستسيغاً ما يناله باحتمال عجيب وثبات عنيد ، لا يجد لكل ذلك خطراً في جنب الله .

---

(١) ذكر الذهبي عن أبي الخطاب بن دحية أن ابن حزم « قد برص من أكل اللبان وأصابه زمانة » — تذكرة الحفاظ .

(٢) هناك تاريخ آخر تفرد به محمد بن الغزال ، فقد روى عنه الذهبي أنه قال : « توفي في جمادى الأولى سنة سبع وخمسين » ثم قال الذهبي : « وأرخه في سنة ست غير واحد » اهـ . قلت : وقد أجمع المترجمون له على أن الوفاة في سنة ست فلا يلتفت إلى الرواية الشاذة .

ولقد نعى — رحمه الله — نفسه بأبيات أنشدها و كأنه يطّلع في صفحة الغيب ، قال :

كأنك بالزوار لي قد تبادروا ... وقيل لهم : أودى عليّ بن أحمد
فيارب محزون هناك وضاحك ... وكم أدمع تذرى وخد مخدّد
عفا الله عني يوم أرحل ظاعنا ... عن الأهل محمولاً إلى ضيق ملحد
وأترك ما قد كنت مغتبطاً به ... وألقى الذي أنسيت دهراً بمرصد
فوا راحتي إن كان زادي مقدما ... ويا نصبي إن كنت لم أتزود[1]

وبوفاته بدأ يشق طريقه إلى الخلود ، وطفقت حسرة الناس تعظم لفقده وأخذوا يشعرون شعوراً قوياً بعظم النكبة فيه . فعرفوا له — حسب العادة في الشرق — منزلته وعبقريته ، وبوّؤوه المكان اللائق به فكان أفحل ذهن انبثقت عنه الأندلس في جميع عصورها . وهو في رأيي الذهنية الفريدة التى تمثل الثقافة الأندلسية أصدق تمثيل ، ولست أرى هذه الميزة لآخر سواه .

خلّف من البنين غير أبي رافع الذي تقدم ذكره مراراً: أبا أسامة يعقوب وأبا سليمان[2] ، فنشروا معارف أبيهم وحفظوها جهد طاقتهم .

رحمه الله وجزاه عن الحق وأهله خيراً

---

(١) إرشاد الأريب . مجلة المقتبس : المجلد الأول . وفي إرشاد الأريب رواية ثانية لعجز البيت الرابع هذا نصها : وألقى الذي آنست منه بمرصد

(٢) معلمة الإسلام (ابن حزم) .